

رحلة طه الكردي الباليساني

في العراق وبلاد الشام والاناضول ومصر والحجاز

تحقيق

الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف

الطبعة الثانية

رحلة طه الكردي الباليساني

في العراق وبلاد الشام والأناضول ومصر والحجاز

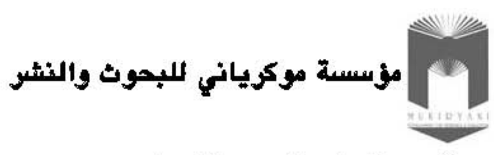
رحلة طه الكردي الباليساني

في العراق وبلاد الشام والأناضول ومصر والحجاز

تحقيق

الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف





● رحلة طه الكردي الباليساني

في العراق وبلاد الشام والأناضول ومصر والحجاز

- تحقيق: الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف
- التصميم داخلي: گوران جمال رواندزى
- غلاف: رزگار فقى عولا
- مشرف الطبع: هێمن نەجات
- رقم الايداع: ٤١١
- السعر: ١٧٥٠
- الطبع الاول: ٢٠٠٧
- عدد: ٧٥٠
- مطبعة: مطبعة مؤسسه ئاراس (اربيل)

تسلسل الكتاب (٢٣٧)

الموقع: www.mukiryani.com

ئيميل: info@mukiryani.com

فهرس المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

في تكية قديمة من تكايا دمشق وزواياها، تعرف بالخانقاه السميساطية، جلس رجل صوفي المَشرب، واسع التجربة، قد أتعبته الأسفار، ذات يوم من أيام سنة ١٢٠٤هـ/١٧٨٩م، ليسجل في دفتر أمامه، مذكراته منذ أن أبصر النور في قرية صغيرة من قرى كردستان، تسمى باليسان، وحتى لحظة كتابته تلك المذكرات. وكان هو من أسرة كردية نبيلة، تولت زعامة عشيرته ردحاً من الزمان، فهو- كما سمى نفسه- طه بن يحيى بن الأمير سليمان بن الأمير محمد خان بن سبحان ويردي خان بن أحمد خان بن عبد المؤمن خان الماموي الكردي اليمني الشافعي مذهباً والقادري طريقة والإبراهيمي ملة والمحمدي أمة والباليساني بلداً[1] وخوشناوي عشيرة والشامي مهاجراً.

وإذ طافت الذكريات حية في وجدانه وكأنها تبدو أمام ناظريه، فإنه لم يشأ أن يقتصر على ما تذكره بنفسه، وإنما ما حكي له عن سني طفولته الأولى، فسجل

1- باليسان قرية من نواحي خوشناو، وتعد اليوم من أعمال إربل، عرفت بكثرة من خرجته من العلماء، وقد ذكر هو في تضاعيف رحلته أن أسرته كانت تتولى زعامة عشيرته، يؤيد ذلك أن بعض أسلاف الأسرة عرف بلقب (أمير). ينظر كتابنا: مراكز ثقافية مغمورة في كردستان، بغداد ١٩٩٧، ص٢٤- ٢٥. وقال إبراهيم فصيح الحيدري في حديثه عن عشيرة الخوشناو " أهل شجاعة واقدام .. نشأ منهم علماء فحول" (عنوان المجد في بيان أحال بغداد والبصرة ونجد، ص١١٨).

تاريخ ولادته بحساب الجمل الذي كان معتاداً اتخاذه سبيلاً لحفظ التواريخ المهمة، فكان ذلك سنة ١١٣٦هـ/١٧٢٣م، ودَوَّن ما قيل له عن مشاعر الأسرة لحظة ولادته، وسبب اختيارها اسمه، واهتم بالحديث عن هذه الأسرة ملاحظاً أنها كانت تتمتع بنصيب وافر من الثقافة والورع، فأبوه كان حافظاً للقرآن الكريم، وخاله كان عالماً بارزاً، كما كانت خالته وأمها عالمتين هما أيضاً، وربما أراد بهذه الإيضاحات عن أسرته الاعتراف بأثر البيأة الأولى التي نشأ فيها على توجهه الثقافي وسلوكه في مراحل حياته التالية، وفي الواقع فإن لأسرته هذه الدور الأول فيما بدا عليه من ورع، بل أظهر – وهو لم يزل فتى- رهافة مشهودة في حسه، ورقة في مشاعره، دفعته ذات يوم إلى أن يقصد أحد الصالحين الذي طار صيتهم في القرى المجاورة، ليعاهده على التوبة المطلقة، وليسلك على يديه سبيل النجاة من أدران الدنيا، فكان أن بدأ رياضة روحية عميقة، ومجاهدة شاقة للنفس، وكانت ثمرة ذلك كله نزوع إلى الزهد، ورغبة مضطرمة في أداء فريضة الحج، والالتقاء بكبار الصالحين الذين تمكنوا من اختصار الطريق إلى الله تعالى بما ارتقوا إليه من درجات.

وهكذا تولدت في نفس الفتى الرغبة في السفر والارتحال، ولم يكد يتجاوز العشرين من عمره حتى اتخذ قراره الأخير، وهو ترك قريته حيث موطن طفولته، وملعب أترابه، ليمضي في رحلة شاقة محفوفة بالمخاطر لأداء مناسك الحج. ولما كان طريق الحج يمضي في ذلك العصر عبر طريق طويلة تمر بمدن ونواح عديدة، فقد أتاحت له هذه الرحلة مشاهدة ما لم يكن متاحاً لشاب مثله أن يراه، فمر بالموصل، بعد سنة واحدة من انتصار أهلها على جيش نادرشاه سنة ١١٥٦هـ/١٧٤٣م، وانطلق منها إلى حلب فدمشق فبيت المقدس فيافا، ومن الأخيرة ركب البحر إلى مدينة المنصورة بمصر، ومنها إلى طنطا حيث نزل في مقام الولي السيد أحمد البدوي أياماً، ثم توجه إلى القاهرة حيث أقام في رواق الأكراد في الجامع الأزهر مدة ثمانية أشهر كاملة، ومنها ارتحل إلى مدينة السويس، فركب سفينة من هناك بلغت به إلى ميناء ينبع، ومن الأخيرة توجه مع الحاج المصري إلى الحجاز حيث أدى مناسك الحج، ثم عاد إلى مصر،

ومنها إلى الشام حيث استقر في مدينة دمشق أربعة أشهر، وهو مقيم في بعض مدارسها العلمية، ثم غادرها إلى مدينة طرابلس، ومنها ركب سفينة رست به في أحد موانئ جزيرة قبرص، وتوجه بعدها إلى دمياط في مصر، حيث نزل في الأزهر مرة أخرى، ويظهر أنه ركب البحر من هناك إلى الحجاز، كما فعل في المرة الأولى، وبعد إتمامه مناسك الحج، توجه إلى بلاد الشام، سالكاً طريق الحج التقليدي إلى دمشق، لكنه لم يدخلها وفضل الاتجاه إلى حلب، وسبب ذلك هو وصول جيش علي بك الكبير بقيادة محمد بك أبي الذهب إلى تلك المناطق، وهرب عدد من أهل دمشق إلى حلب وغيرها من المدن خوفاً من المعركة المتوقعة بينه وبين القوات العثمانية، وما أن انسحب جيش أبي الذهب حتى عاد هو إلى دمشق فوصلها سنة ١١٧١هـ/١٧٥٧م.

ولم يكد يستقر به المقام في دمشق حتى تركها في رحلة أخرى إلى اسلامبول حيث أقام هناك نحو سنة ونصف، عاد بعدها إلى دمشق سنة ١١٨١هـ/١٧٦٨م. وبعد عدة سنوات من الإقامة فيها، قرر السفر إلى بغداد، سالكاً طريق الفرات، فمر بهيت، وبغيرها من النواحي على ذلك الطريق النهري، ثم توجه براً إلى بغداد حيث وافاها سنة ١١٨٥هـ/١٧٧٢م. ولم يوضح المؤلف سبب زيارته لهذه المدينة، وعلى أية حال فإنه لم يسجل من ذكرياته عنها إلاّ القليل، لأنه غادرها بعد مدة غير طويلة إلى كركوك، ومنها وصل إلى كوي سنجق بلدته الأولى. وفي هذه البلدة اكتشف طه الباليساني أن شهرته قد طارت حتى سبقته إلى البلاد التي غادرها شاباً منذ نحو ثلاثة عقود من السنين، فسجل، متواضعاً، ذكرياته عن تلك الوفود من أهل القرى الذين جاءوا خصيصاً لزيارته والتبرك به.

ولم تقنعه حفاوة الناس به بالاستقرار في بلدته تلك، إذ تركها بعد مدة قاصداً بلاد الشام، وقد مر في خلال رحلته بعدد من مدن وقلاع الإمارة العباسية في بهدينان، مثل عقرة وزاخو، والتقى في أثناء ذلك بأمراء ذوي نبل وأدب ظاهرين من أبناء الأسرة العباسية الحاكمة هناك، ووصف خلقهم وجوانب من علاقتهم بمواطنيهم، ثم مضى إلى جزيرة ابن عمر، فنصيبين وماردين، في أعالي بلاد الجزيرة، وكانت يومذاك

تابعة لولاية بغداد، ومنها يمم إلى مدينة الرها، ثم هبط إلى مدينة البيرة على الفرات، ومنها إلى حلب حيث نزل في بعض مدارسها، ولم يكد يستريح من عناء السفر المتصل، حتى غادرها سالكاً طريق المعرة فحمص ثم حماة حتى وصل إلى دمشق سنة ١١٨٩هـ/١٧٧٥م.

ولسببٍ ما فإنه فضل هذه المرة أن يتخذ من دمشق له مستقراً، وكان خانقاه السميساطية مكانه المفضل للإقامة، وجوامع المدينة ومساجدها مجالاته المحببة للزيارة والدرس والالتقاء بالعلماء والصالحين. وشرع، وهو في تلك الخلوة الطيبة في الخانقاه، يدون وقائع حياته ورحلاته التي استغرقت أكثر سني عمره، فكان آخر ما سجلته يده مؤرخاً بسنة ١٢٠٤هـ/١٧٨٩م، أي أنه لبث في دمشق مدة لا تقل عن خمس سنين كاملة. وإذ توقفت أنامل الشيخ عن الكتابة في دفتره في ذلك التاريخ، فإننا لا نملك دليلاً على مجريات حياته فيما تبقى من عمره المبارك، ولا نستبعد أن يكون قد استقر في مقامه ذاك بصفة نهائية، أما دفتر مذكراته نفسه فقد شاء القدر أن تتناقله الأيدي حتى يستقر في خزانة المخطوطات في دار الكتب المصرية ليقبع هناك إلى ما شاء الله تعالى.

ومن نافلة القول أن ما سجله طه الباليساني في رحلته هذه فوائد جمة، فهي كسائر كتب الرحلات، تتضمن من المشاهدات والملاحظات ما لا توفره مصادر التاريخ عادة. وعلى الرغم من الضعف التي يعتور أسلوبه أحياناً، فإنه استطاع أن يرسم لنا صوراً معبرة متتابعة عن عدد كبير من المدن والقرى والقلاع والموانئ مما مر به في أثناء رحلته، ووصف مخاطر الطريق، وسجل أحوال خانات المسافرين، ومحطات السفر، ولاحظ خراب عدد من المدن، وحاول تفسير ذلك الخراب، وقدم صوراً حية لجموع الشحاذين الذين كانوا يستقبلون قوافل المسافرين حين وصولها إلى بعض المدن، وتردي أخلاق بعض فئات من البحارة في بعض الموانئ، ومشاق الرحلة البحرية، في الوقت نفسه الذي وصف فيه ورع كثير ممن التقى بهم من العلماء والصالحين والشيوخ وحتى المجاذيب!

وفي تقديرنا فإن قارئ هذه الرحلة سيخرج بنتائج كثيرة جديرة بالانتباه، منها أن طه الكردي الباليساني لم تكلفه رحلاته الطويلة والمستمرة شيئاً من المال، أو أنها كلفته القليل، وهو لم يكن يحمل معه من الأمتعة غير كتبه، ويعود ذلك إلى أن مؤسسات عدة كانت قد اعتادت على استضافة أمثاله من أهل العلم والدين، مثل المساجد والخانقاهات والمدارس، وكان واقفو هذه المؤسسات يخصصون من الموارد ما يكفي للإنفاق على مثله. كما كان المجتمع كله مستعداً لإعالة أهل الصلاح وتيسير مهمتهم في الانتقال والإقامة تقديراً منه لمكانتهم من جهة، ورغبة في التقرب بهم إلى الله تعالى من جهة أخرى. صحيح أن طرق المواصلات كانت تعج في كثير من النواحي بقطاع الطرق وفارضي الأتاوات، إلاّ أن هؤلاء العلماء والصالحين كانوا موضع حفاوة من فئات مختلفة كلما وصلوا إلى مدينة ما.

ومن ناحية أخرى، فإن الرحلة أكدت، مثلها في ذلك مثل الرحلات الأخرى، قوة الوشائج الثقافية والروحية التي كانت تصل بين مجتمعات المدن الإسلامية في تلك القرون، وعمق العلاقات التي كانت تجمع بين النخبة المثقفة في تلك المدن، فالرسائل المتبادلة والإجازات العلمية المرسلة والالتقاء بين العلماء في رحلات الحج طلب العلم، كان من شأنها أن تعزز الشعور بوحدة ذلك المجتمع الذي ينتمون إليه.

عملنا في التحقيق

إن من الرحلة نسخة مخطوطة فريدة محفوظة في دار الكتب المصرية، تحت العدد ٣٧٣ جغرافيا، بخط أحد علماء دمشق من معاصري المؤلف، هو الشيخ أحمد بن إسماعيل العجلوني الجراحي، فرغ منها في ١٨ ذي القعدة سنة ١٢٠٥هـ/ ١٨ تموز سنة ١٧٩١م. وقد كتب على الورقة الأولى منها بخط مختلف (رحلة الشيخ طه الكردي رحمه الله تعالى). وتتألف النسخة من ٩٤ ورقة، في كل منها ٢٥ سطراً، وهي مكتوبة بخط نسخ معتاد. وكنا قد حصلنا على نسخة مصورة منها بطريقة المايكروفيلم عند إقامتنا في أرض الكنانة للدراسة في جامعة القاهرة قبل نحو ثلاثة

عقود من السنين، ونظراً لأن المؤلف – رحمه الله تعالى- ضمن رحلته هذه استطرادات لا صلة لها بموضوع الرحلة نفسه، ونصوصاً لرسائل أدبية تقليدية، وأشعاراً بالغة الضعف، فلم نجد من المجدي نشر ذلك كله، وفضلنا أن ننشر من نص الرحلة ما هو مفيد لدراسة أدب الرحلات في ذلك العصر، من وصف للمدن والقرى ومراحل الطرق، من التقى بهم المؤلف من الأمراء والعلماء والصالحين، وما شاهده من أحوال وأهوال !

وعلى الرغم من الضعف الظاهر في الأسلوب فإننا أبقينا على عبارة الكتاب دونما تغيير، اللهم إلاّ إصلاح بعض الأخطاء الإملائية ونحوها. وبالمقابل فإننا رأينا من المفيد توضيح كلام المؤلف بتعليقات وشروح أدرجناها في مواضعها من الكتاب على ما يراه القارئ الكريم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الدكتور عماد عبد السلام رؤوف
إربل في ١٣ شباط سنة ٢٠٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه نستعين

الحمد للصانع البديع، متقن كل شيء شريف ووضيع..

وبعد.. خرجت من وطني الذي منه الظهور، أعني بطن أمي، بلا قصور. قيل لي، وكان ذلك ليلة الاثنين الثالث عشر من ربيع الأول، في قرية باليسان، ليلاً بعد العشاء الأخير، من بلاد الأكراد التي هي من أعمال بغداد، بتاريخ (وغلق)١١٣٦ [2]وونى ذلك الباب أبداً أن يصح لي العشاء[3]. وكان والدي في جمع من أقاربه لأجل قراءة المولد النبوي عليه السلام، وقارئ المولد يقرأ، وسموه محمد طه وياسين- زاده الله السلام والسلام- إذ جاء البشير إلى والدي أن جاءك غلام، فقال: سميناه محمد، ثم قال: ندعوه طه زمانه لأجل أخيه محمد، عمي شقيق أبي في المجلس، فالغالب على أهل تلك البلاد طباع الجاهلية في الأمر يتشاءمون تسمية الرجل باسمه متى غاب، واشتهرت بطه دون محمد في الألسن، وإن محمد وطه وصحيح الدين وأبو الفيض. وشكرت ربي أن جعل مولدي مطابقاً لمولده صلى الله عليه وسلم من حيث الزمان.

ثم لما كبر سني وحصل عقل التمييز، بارك المنان ذو الفيض في حواسي.. ولم أزل في ازدياد إلى أن بلغت دون البلوغ بلا مَين[4]، وكان أبي حافظاً للقرآن، وكذاك تقرأه أمي وأم أمي وخالتي العالمة الصالحة فاطمة أم الهدي بنت العلامة الفاضل النحرير الولي

2- ويوافق أولها ١ تشرين الأول سنة ١٧٢٣م.

3- كذا في الأصل، وفي الجملة ارتباك.

4- المين: الكذب.

الجامع بين العلم والعمل الشيخ محمد -رحمه ربه- وأهله جدتي العالمة آسية أم شيخي ملا عيسى، فحصل لي من أنوارهم ما يزيد عن الإحصاء .. ثم بعد العشرة من الأعوام، اشتغلت بطلب العلم فقهاً وصرفاً ونحواً مدة قليلة.. وغير ذلك نظماً ونثراً على العالم الشيخ المرشد بدر الدين أبي أحمد ملا عيسى.. وهو، أعني الأستاذ المذكور- حفظه الحفيظ- ملا عيسى، داره في قلعة كركوك من أعمال بغداد.. وهو الحسيب النسيب الشيخ أحمد العباسي[5] قدس سره.. وقد بلغ من العمر ما يربو على ثمانين حفظه الله الحفيظ آمين.. وابنه العالم الفاضل الأديب ملا أحمد نائب قضاة كركوك في التاريخ المذكور ، وهو سنة ١٢٠٣[6] كامل في فنون العلم ما عليه مزيد- صانه الله تعالى وحفظه- وولده الثاني شقيق ملا أحمد، ملا عمر أصغر منه بالعمر وإن غلبه بالزكاة والعلم -بارك الله تعالى فيه- وسِبطه الصالح التقي ملا عبد الله الفتى الأديب، الغالب على طبعه الهرب من الإنسان وصحبة الناس إيثاراً لحبه في عبادة ربه تعالى، مع صغر سنه، جعله الله من العلماء العاملين آمين. وكنت في قصبة كوي سنجق[7] من بلاد الأكراد من أعمال بغداد، وعمر إذ ذاك نحو سبعة عشر

5- هذا ما ذكره المؤلف، وهو المعاصر له، العارف بأحواله لقرابته منه. ولكن ذكر الشيخ عبد الكريم المدرس في ترجمته له" عيسى بن أحمد بن ميكائيل الخوشناوي الكردي الصهراني الشافعي، فقيه، مفسر، أفتى بكركوك، من تصانيفه تفسير القرآن من سورة مريم إلى آخر القرآن. توفي بعد ألف ومائتين هجرية- ١٧٨٦م". علماؤنا في خدمة العلم والدين، بغداد ١٩٨٣، ص٤٢١.

6- ويوافق أولها ٢ تشرين الأول ١٧٨٨م.

7- كوي مدينة قديمة كانت تابعة لولاية شهرزور في العهد العثماني الأول، وتنازعها أمراء سوران (مركزهم رواندوز) وأمراء بابان (مركزهم قلا جولان فالسليمانية) حيناً من الدهر، ثم استقرت بيد الأخيرين منذ القرن الثاني عشر للهجرة، حيث كانت تشكل و(حرير) (وهي عاصمة سابقة للسورانيين) ثاني إقليمين مهمين تتكون منهما الإمارة البابانية في العصر العثماني، إضافة إلى إقليم السليمانية العاصمة، وقد احتفظ والي بغداد- في أغلب الوقت- بحقه في تعيين(باشا) لكوي، يتبعه في سائر شؤون ناحيته، إلاّ أنه كان يمنح إدارة هذا الإقليم أحياناً إلى حكام السليمانية

سنة. وتخلّفت عن شيخي ملا عيسى لأنه ذهب إلى كركوك وما رضي والدي بذهابي معه- رحمة الله عليه- إلى تلك البلاد، وأنا في مدرسة كوي[8] منشغل بطلب العلم في غاية السرور مع الطلبة.

وفي ذلك الوقت [كان] الولي المُقرَّب الفَرْد صاحب الكرامات الظاهرة والجوائز المشتهرة التي لا مزيد عليها في تلك الديار، المعروف بالدرويش مصطفى- رضي الله عليه وأرضاه وقدس سره- في قرية من قرى كوي يقال لها باوَجي[9]، نحو ثلاث أو أربع ساعات، ويأتي يوم الجمعة إلى المدينة فيجتمع عليه الناس كأنه نبي من الأنبياء، وينزلونه في دار خطيب كوي، الفاضل العالم الصالح ملا حسين رحمة الله عليه، وكان بيته قريباً من المدرسة التي أنا فيها، ولي رفيق في الطلب أكبر مني سناً وأفقه وأعلم، اسمه الفقيه حسن بن غانم رحمهما الله الرحمن، كان قد بايع الشيخ على طريقة محيي الدين عبد القادر الجيلي- رضي الله عنه- ويذكر لي عنه حال شيخه وكراماته، وكتبوا له، وأنه كذا وكذا، إلى أن حصل في قلبي حب الاجتماع به لأجل أن أزوره وأنا معه، فقلت لرفيقي الفقيه حسن: إذا جاءت الجمعة الآتية خذني إلى عنده وأذكر له حالي وما أريد، وصِر ترجماناً بيني وبينه ولك الجزاء على الله تعالى، وكان في شهر شعبان آخره، والباقي منه ستة أيام بتاريخ سنة إحدى وخمسين ومائة وألف.

أنفسهم. ينظر كتابنا: الأسر الحاكمة ورجال الإدارة والقضاء في العراق في القرون المتأخرة، بغداد ١٩٩١، ص٢٦٦.

8- إن أقدم مدرسة في كوي وصلتنا أخبارها هي تلك التي أنشأها الأمير عبد الرحمن البابانى (حكم على نحو متقطع بين ١٢٠٤ و١٢٢٨هـ/١٧٨٩-١٨١٣م) سنة ١٢١٥هـ/١٨٠٠م. وهذه المدرسة التي يشير إليها المؤلف هنا هي بالطبع أقدم منها، مما يشير إلى عراقة الحركة العلمية في هذه البلدة منذ عهد سابق، ينظر كتابنا: مراكز ثقافية مغمورة في كردستان، ص٦٣.

9- قرية كانت في سفح جبل باواجي القريب من بلدة كوي سنجق.

وجاءت الجمعة والشيخ أتى ونزل في دار الخطيب المزبور، ورفيقي قال لي: جاء الشيخ! إن كان تريد قم نريد، فذهبنا ورأينا ازدحاماً حافلاً، وأنا في غاية (...)[10] الناس، والشيخ داخل الليوان[11]، وعنده خلق كثير، وفي الخارج، إلى أن دخل رفيقي وأخبره بخبري، خرج فقال لي: قلت له. ثم بعد ساعة وإذا بالشيخ قد خرج، نظر إلي وأنا في يدي دواة حبر مسدود الفم، أحركها لأجل إصلاح الحبر، فلما رأيت الشيخ قبلت يده، وقال رفيقي: هذا هو! يعني أنا، وأنا باهت حياءً، فما رأيت إلاّ أن الشيخ مد يده وأخذ الدواة من يدي، وقال لي: ما هذا؟ قلت: هذا حبر أقوم بتحريكه، ثم وقف يحكي مع الناس حصة، ثم دخل المسجد وقال لنا: تفضلوا، ودخلنا وجلسنا، وأنا في مقابلة الشيخ مطرق زماناً. ثم أمرني بأن آتي إلى عنده، فقمت وقعدت على ركبتي بين يديه، والمكان لا يسع أحداً غير القاعدين. ثم قال: مرادك أن تتوب؟ قلت: إن شاء الله. قال: ولا تعد إلى ذلك؟ قلت: إن شاء الله. قال: تُب من كل ذلك! قلت: تبت من جميع الذنوب.. ثم قال: أطرق برأسك واحبس نفسك وأذكر بقلبك لا إله إلاّ الله وحده إلى أن يضيق نفسك، حيث لا يبقى لك جلد فوق ذلك من حبس النفس، إلى أن ترسله. وعملت كما أمر، ثم أرسلت نَفَسي بعد جهد مني لإمساكه وأنا أذكر لا إله إلاّ الله بقلبي من غير تحريك اللسان. فقال لي الشيخ: كم مرة قلتها؟ قلت له: سبع مرات. قال: مليح! ثم قال: وأدِم على هذا الذكر بهذه الكيفية حتى تذكر لا إله إلاّ الله بقلبك في نَفَس واحد خمسمائة مرة، ثم تعال إلى عندي، يعني إلى القرية. فصرت ليلاً ونهاراً أحبس النفس، وأذكر لا إله إلاّ الله، وفي يدي سبحة خمسمائة حبة، أعد بها العدد حتى صرت أقول مائة مرة إلى مائتين وثلاثمائة وأربعمائة وعشرين وأكثر، فلا أقدر أفي بالعدد المأمور، إلى مضي سنة أو سنة ونصف، ورأيت شيخي الغوث الصالح الشيخ أحمد الحصاوي البصري في الرؤيا- قدس سره- وشربت الحليب

10- كلمة غير واضحة.

11- الليوان محرفة من الإيوان، لفظة شاع استخدامها في العراق خاصة، للدلالة على الأواوين التي تبنى في صدر البيت، وتكون مجلساً لرب البيت وضيوفه عادة.

فيها وأنا لا أدري بعد تأويل الرؤيا إن الحليب صورة العلم، والعلم لب كل مطلب، وبعد تلك الرؤيا بلغت العدد حده، وذهبت إلى الشيخ وأخبرته، فقال لي: هذه بركة الشيخ أحمد! والشيخ أحمد هذا مجهول الحال، صاحب الكرامات الظاهرة عند محبيه، وله الطريق التام والبَدَلية[12]، وكان في الحياة ذلك الوقت، إلاّ أنه ما كان في بغداد بل كان في مدينة صرت[13] بالهند، نفعني الله به، رضي الله عنه..

ثم لا أزال أتردد إلى الشيخ إلى أن خرج على بلادنا ملك العجم، وعلى بلاد سلگاننا السلگان أحمد- رحمه الله تعالى[14]- وهو المشهور بالطهماس[15]، وجاء الشيخ إلى بلادنا.

12- مرتبة صوفية رفيعة.

13- الراجح أنه يريد مدينة (سورات) وهي ميناء في ولاية كجرات الهندية على خليج كامباي.

14- هو السلطان أحمد الثالث، تولى السلطنة العثمانية من سنة ١١١٥هـ إلى سنة ١١٤٣هـ/١٧٠٣- ١٧٣٠م.

15- هذا الاسم الذي عرف به نادرشاه في العراق، وذلك أن نادر سمى اسمه أولاً بطهماسب قولي، أي عبد طهماسب، إشارة إلى تبعيته المطلقة للشاه طهماسب الثاني الصفوي، فعرفته المصادر العراقية بطهماسب، أو طهماس، الجزوء من الاسم المذكور، وعلى الرغم من أن نادر أعلن بعد هجومه على الهند خلع الشاه طهماسب، وتوليه هو عرش إيران باسم نادرشاه، فإن تلك المصادر لبثت تشير إلى اسم طهماس غالباً. وقد تولى نادر السلطة في إيران رسمياً ١١٤٨هـ/١٧٣٦م، ولقي مصرعه سنة ١١٦٠هـ/ ١٧٤٧م.

الموصل

وذهب طهماس فحاصر مدينة الموصل[16]، وهي قريبة من بلادنا[17] نحو ساعة وحصر [ها]، ومكث محاصراً لهم إلى أن أمر الجند جميعاً أن يحملوا السلالم الطوال وينصبوها بالسور، وتصعد عليها الرجال، وتدخل داخل البلد، ويفتحوا أبوابها ويدخل العسكر، وكان ذلك في وقت الفجر الأول[18]، والرجال الحمالون للسلالم ألوف ومن ورائهم ألوف بالسيوف يسوقونهم قهراً، حيث لو رجع أحد منهم يضربه سيف من يسوق أمرهم طهماس بذلك، لكن كان في عسكره اناس مسلمون من أهل السنة والجماعة لهم خبر هذا الأمر قبل أن صار، أرسلوا خفية إلى أهل الموصل الخبر أن طهماس مراده غداً في وقت كذا يأتيكم كذا، أصلحوا وأعملوا جهدكم، نحن بحمد الله مسلمون ما نريد أن يظفر بكم الرافضي يقتل رجالكم ويسبي أولادكم ونساءكم[19]. فلما وصل إليهم الخبر أمر حاكم البلد جميع من في البلد من الرجال والشباب الذين

16- وصل نادرشاه بقواته إلى الموصل في ٢٤ رجب ١١٥٦هـ/ ١٣ أيلول ١٧٤٣م، وبدأ بقصفها بالمدفعية في ٦ شعبان/٢٧ أيلول، وفي ٤ رمضان/٢٢ تشرين الأول انسحب نادرشاه بعد فشله في اقتحامها أو حملها على الاستسلام.

17- من الواضح أنه يقصد هنا قرية باليسان وجوارها.

18- إن معركة السلالم هي واحدة من صفحات حصار نادرشاه للموصل، فبعد أن فشل في حمل المدينة على الاستسلام، إثر قصفها بالمدفعية الثقيلة في الأيام٤-١١ شعبان، ثم في اقتحام برج باش طابية في ١١-١٥ شعبان، وفي نسف أوارها بالمتفجرات في ١٥ شعبان أيضاً، أمر نادرشاه قواته بالهجوم على أسوار المدينة دفعة واحدة وهم يحملون السلالم لكي يتسلقوها ويقتحموا المدينة عنوة بعد إبادة المدافعين على تلك الأسوار، بيد أن هذه الخطة فشلت هي أيضاً وكانت وبالاً على المهاجمين، كما سيذكر المؤلف. ينظر كتابنا: الموصل في العهد العثماني، فترة الحكم المحلي، النجف ١٩٧٥، ص١١٠

19- انفرد المؤلف هنا بذكر هذه الرواية المهمة عن أن قيام أفراد من داخل معسكر نادرشاه بالاتصال سراً بالقيادة الموصلية يكشفون لها خطط نادرشاه تفصيلاً.

لهم قوة الحرب أن يعملوا السور ويقفون مسلين السيوف والبنادق والعصي والحجارة حتى يضربوا من يعلوا السور، وطهماس ما له خبر أنهم عالمون بمكيدته. ومشوا حمالين السلالم في وقت الفجر في الغلس وهم ساكتون ونصبوا السلالم وعلا الرجال عليها، وأهل البلد واقفين مهيئين للحرب قوتهم، وإذا بالأعجام قد علوا السور، وجاءهم ضرب السيوف ورمي البنادق والحجارة والعصي، وذهب الظلام وما بقي من الصاعدين أحد، والذين تحت السور انهزموا كلهم وضربوهم بالمدافع أيضاً،وما يجيء في الحساب القتلي، ونصر الله المؤمنين، وخذل أهل البغي بفضله، [و] بعد سنة أتيت إلى الموصل ورأيت أطراف القتلى في أرضها كالأرجل والأيدي وغير ذلك شيئاً كثيراً[20]. ثم رحل عنهم طهماس خاسراً ونحن خلصنا من التحصن وانطلق الأمر، ومشت القوافل.

ورحل شيخنا من بلادنا قاصداً الشام، وتخلفت نا عنه. ثم في العام الثاني جئت أنا وابن عمي العالم الأديب ملا أحمد- رحمه الله- إلى الموصل ومرادنا الذهاب إلى الشام، لأجل الشيخ، وكان نزولنا في مجلس نبي الله جرجيس عليه السلام[21]. وفي

20- تنظر التفاصيل في محمد أمين العمري: منهل الأولياء، الموصل ١٩٦٨، ج١ ص١٥٩ وياسين العمري: منية الأدباء في تاريخ الموصل الحدباء، الموصل ١٩٥٤، ص١٨٠ والدر المكنون (مخطوط في المكتبة الوطنية بباريس) الورقة ٥٩٤ وتقرير الوزير حسين باشا القازوقجي، وهو التقرير الرسمي العثماني عن المعركة، نشره المرحوم سعيد الديوه جي في ملاحق منية الأدباء ص٢٨٤ وغير ذلك.

21- أحد المساجد القديمة في الموصل، لا يعلم تاريخ انشائه الأول، وفي الغالب فإنه هو المسمى بمسجد النبي الواردة أخباره منذ القرن الثالث للهجرة، وعرف بمشهد النبي جرجيس في القرن السادس للهجرة، وقد زاره الرحالة ابن جبير في سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م. وأشار إلى قبر للنبي جرجيس في هذا المشهد، وقد شد على هذا المشهد سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٣م جامع كبير لبث حتى اليوم وكان والي الموصل الحاج حسين باشا الجليلي قد وسع هذا الجامع توسعة كبيرة في السنوات ١١٤٧- ١١٥٢، أي قبيل زيارة المؤلف إياه ونزوله بعيد هذه المعركة. ينظر سعيد الديوه جي: جوامع الموصل في مختلف العصور، الموصل ١٩٦١، ص١٠٨-١١٢.

الموصل إذ ذاك من العلماء والمشايخ لا أضبطهم، وواحد يقال له السيد عطا الله من الرجال المُعوَّل عليهم في الموصل تقصده الخلائق للزيارة والتبرك به، وهو- رحمه ربه- يقعد في سرداب ينزل إليه تحت الأرض عشرة أو أكثر درجة، وعنده جماعته دائماً، فلما وصلنا طلبنا الاذن ودخلنا عليه وسلمنا وقبلنا يديه ورحب بنا وأكرمنا، فقلت له: يا سيدي، مرادنا الرواح إلى الشام، نرجوكم المدد والدعاء. فقال: تروحون وتصلون إليها سالمين، وتجيئون سالمين. فودعنا بعد الدعاء والفاتحة، وكان الأمر كما أخبر- زاده الله تعالى قرباً وكرامة- أما ابن عمي ملا أحمد[فقد] انتفع بالشيخ وحصل له بعض الفتوح ورجع إلى البلاد في حياة الشيخ.

دمشق

وأما أنا فمكثت في الشام نحو ثمانية عشرة أيام، وقصدت الذهاب إلى مصر والقدس والحجاز، وكان لي أخ من أبي اسمه حسن، خرج قبل أن خرجت من البلاد بعدةٍ من السنين، كان حلو المنظر، صالحاً تقياً حافظاً لكلام الله، جاور الحرمين مدة بعدما سكن زماناً في الشام، فحصَلت له في مكة المشرفة ونواحيها شهرة عظيمة

مغادرة دمشق

في صحبتي حين خرجت من الشام رفيقان صالحان، أخواني في البلاد وفي المبايعة[22]، واحد يقال له حسن ، والآخر عبد العزيز- يرحمهما الله تعالى- أما عبد العزيز مات في طريق سويس إلى مصر بالسموم ظمأ واناس كثيرون، وأما حسن [فـ]رجع إلى بلاد الأكراد إلى قصبة كوي بلد الحاكم، و جلس في زاوية ، وفتح باب الذكر والمبايعة[23]،

22- مصطلح صوفي يقصد به بيعة الشيخ على إحدى الطرق الصوفية، وهي هنا الطريقة القادرية حصراً.

23- تقدم شرحها.

وقصدته الناس واشتهر هناك مدة أعوام ثم مات -رحمه الله- ودُفن بزاويته، وقبره يُزار ويُتبرك به، مشهور.

بيت المقدس

ووصلنا إلى بيت المقدس بعد خروجنا من دمشق، واجتمعنا بالقطب الصديقي السيد مصطفى البكري[24] قدس سره، وبيته في طريق الحرم من الجانب الغربي، وحصل لنا مدده.

يافا

ثم ذهبنا إلى يافه[25]، وركبنا البحر المالح[26].

دمياط

وخرجنا من دمياط، وقعدنا أياماً، ثم رحلنا إلى مدينة منصورة.

المنصورة

وكان فيها شيخ في حجرة داخل جامع من جوامعها لا يخرج إلا لقضاء الحاجة منذ أعوام، يقصده الناس للزيارة في تلك النواحي مثل شيخه والده المرحوم وتخلف موضعه كما أخبرونا، فزرناه في خلوته، وطلبنا منه الدعاء والفاتحة، ودعا لنا وودعناه.

24- هو مصطفى بن كمال الدين بن علي بن كمال الدين الصديقي الحنفي الدمشقي البكري، عالم متصوف كثير التصنيف، ولد في دمشق سنة ١٠٩٩هـ/١٦٨٨م وتوفي بمصر سنة ١١٦٢هـ/١٧٤٩م، رحل إلى القدس سنة ١١٢٢هـ حيث التقى به المؤلف هناك، وترجم له المرادي في سلك الدرر ج٤ ص١٩٠ والجبرتي في تاريخه ج١ ص١٦٥.

25- كذا كتبها المؤلف، والمشهور بالمد.

26- من الواضح أنه يريد ركب سفينة مخرت به البحر المتوسط.

طنطا

وجئنا إلى بلد طنطه، وفيها مقام الولي الخطيب العلوي جناب سيد أحمد البدوي الشريف الحسيني الفاطمي – قدس سره ورضي عنه ربه[27]- وزرناه وحصلنا البركة من هناك، وأكرمنا المتولي وأعطانا منزلاً في داره، وأعطانا من عمامة السيد، كلاً منا، قطعة، وكتب لنا مكتوباً إلى بعض أصحابه بمصر من الأكابر توصية في إكرامنا وتجهيزنا إلى سويس، وقعدنا عنده في بيته في غاية العز حتى انقضى مولد السيد[28]، وتفرقت الناس ، وطلبنا من السيد أسعد المتولي الإذن بالرَّواح إلى مصر، [فـ]قال : مرادي أن أرسلكم مع بعض معارفي إلى مصر، وهذا المكتوب خذوه معكم وأعطوه إلى فلان، ووصَّى واحداً بذلك عنده، وقال: الآن في دسوق[29] مولد الشيخ مثل ما كان عندنا، لا تنسونا من دعائكم. [فـ]قبلنا يده وودعناه، وزرنا الشيخ إبراهيم الدسوقي[30] – رضي الله عنه – مثل مقام نبي من الأنبياء عليهم السلام.

27- هو القطب الشهير السيد أحمد البدوي، المولود في مدينة فاس في المغرب سنة ٥٩٦هـ/١٢٠٠م، والمتوفى في طنطا بمصر في سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م.

28- يذكر علي مبارك (الخطط التوفيقية ج١٣ ص٥٠-٥١) إنه كان للسيد أحمد البدوي ثلاثة موالد كل عام، أولها المولد الكبير، وثانيها المولد الصغير، وثالثها المولد الرجبي، نسبة إلى أول من نهض به، ونظنه يقصد هنا المولد الأخير، لأنه سيذكر أن المتولي أعطاه قطعة من عمامة السيد، وفي هذا إشارة إلى طبيعة الاحتفال الذي كان يجري في المولد المذكور، حيث كان يجدد العمامة التي على الضريح بالشاش المصبوغ باللون الأخضر في كل عام، حتى عرف ذلك الاحتفال بمولد لف العمامة.

29- دسوق مدينة في الغربية بمصر.

30- هو الشيخ العارف بالله إبراهيم بن أبي الجد الدسوقي الحسيني، أحد كبار الأولياء بمصر، تنسب إليه كرامات وأخبار، ولد سنة ٦٣٣هـ وتوفي ودفن في دسوق سنة ٦٧٦هـ/١٢٣٥-١٢٧٧م. الشعراني: الطبقات الكبرى، ج١ ص١٤٣.

مصر القاهرة

ثم بلغنا مصر، [فـ]أما عبد العزيز وحسن [فإنهما] سكنا تكية القادرية ظاهر مصر القاهرة، وأنا سكنت في الجامع الأزهر، واجتمعت بأخي الشيخ حسن – رحمه الله – [فـ]أكرمني وألبسني وأعطاني موضعه في رواق الأكراد[31]، وكنت أروح إلى عندهما وهما يترددان عليَّ مقدار ثمانية أشهر. ثم [أن] الرجل الذي وصى فينا السيد أسعد المتولي في طنطه أكرمنا واستكرى لنا الجِمال ، وأعطانا مكتوباً إلى صاحب له منارة (كذا) في إكرامنا ونزولنا عنده وبعثه لنا إلى الحجاز في مركب سلطاني، كل هذا ببركة السيد أحمد البدوي رضي الله عنه.

السويس

ثم قعدنا في سويس مدة في بيت المُوصّى فينا جزاهم الله كلهم عنا خيراً، وكان شهر رمضان. وقد وقع لنا ما يحير العقول ويؤيد قول الرسول -صلى الله عليه وسلم- ونحن في سويس يوماً؛ أنا وعبد العزيز وحسن سائرون في بعض شوارع البلدة، مطرقاً بعينه، في الظهيرة، وإذا برجل على امرأة ، وليس في ذلك الوقت وفي ذلك الزقاق أحد غيرنا وغيرهما ، فلما رأيناهما أسرعنا في المشي ونحن غاضّون الطرف إلى أن صرنا في محاذاتهما في جد المشي، وفي قلوبنا دهشة وفزع وتعجب من الذي رأينا ، [و] ما رآه أحد قط ولا أظن إنه اتفق لمخلوق في شهر الصيام، ظهيرة النهار، في قارعة الطريق المنكر هكذا. وإذا المرأة تحت الرجل ورِجلاها مرفوعتان [وهي] نائمة على ظهرها والرجل مشغول بفعله، ولا التفت إلينا أصلاً، ولا خطر بباله منا خطورة مع أننا ثلاثة أنفس، فإذا بها [تقول] بصوت عال: تفضلوا يا مشايخ. فلما سمعنا قولها لنا

31- كانت أروقة الجامع الأزهر حتى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، تسعة وعشرين رواقاً، بحسب من ينزلها من أبناء الأمم الإسلامية، وكان أحدها يسمى رواق البغدادية (أو البغادة والأكراد) وهو الذي نزل فيه المؤلف، وسماه رواق الأكراد مطلقاً. ينظر محمد عبد الله عنان: تاريخ الجامع الأزهر، القاهرة ١٩٥١، صس٣٠٣.

ركضنا على جهدنا فزعاً إلى أن خرجنا من ذلك المكان، ووجدنا اناساً على ساحل البحر، وهناك اناس كثيرون جالسين جماعة ومتفرقين، ما بين آكل وشارب التتن بلا قيد، فخطر ببالي [أن] أسألهم: هل هم نصارى أم من اليهود؟ فمشيت نحو حلقة منهم، وقلت: أنتم نصارى أم يهوداً، فأجابني واحد منهم بلا تغيظ: نحن بَحْرِيَّة. وما فهمت ما قال، لأني ما سمعت هذا القول من أحد غيرهم. ومشيت حتى وصلت إلى رجل من أهل البلد بعيداً عنهم، قلت له: من هؤلاء؟ فقلت أنا لهم: أنتم نصارى أم يهود؟ قالوا: نحن بحرية، ما معنى بحرية ؟ فلما سمع كلامي تبسم، وقال: هؤلاء مسلمين، الحمالين إلى المراكب الراسية، و[هم] ما يصومون! قلت : والذي في هذا الطريق؟ أشرت إليه ما رأينا. قال: إيش لكم منهم ؟ الغواني كثيرون!. ورأيت التساهل منهم في الحدود مثل الأكل والشرب، [فـ]قلت : أخرجنا اللهم من هذه القرية الظالم أهلها، وأجِرنا من غضبك وعذابك بفضلك.

ينبُع

ثم بعد أيام ركبنا البحر وسافرنا بحمد الله تعالى إلى [أن] وصلنا إلى ينبع البحر، الذي بينه وبين المدينة ثلاث مراحل، [فـ]ـأخرج الريِّس كل الفقراء الذين في المركب إلى زورق صغير وأرسلهم إلى ساحل ينبع، وقال: وصلنا إلى أرض الحجاز، وحوالي مدينة الرسول عليه السلام، وإن شئتم إلى مكة المشرفة وبينها وبين مكة سبعة أيام. فلما رأينا الريِّس أخرج الفقراء، قلنا: نرجو منك أن توصلنا إلى جدة، ونحن ما نقدر نمشي، ولا معنا دراهم نستكري، أما في البحر بقي يوم وليلة نطلع إن شاء الله إلى جدة بالسلامة، وفي البر سبعة مراحل طوالا. قال: ما بقي عندنا أكل ولا ماء، وهذا حال البحر ما أحد يعرفه. وبعد جهد منا معه تركنا لكن أنزلنا من المركب إلى الزورق الثاني المربوط بالمركب الكبير..

جدة

[و] رَسَت [في] جدة بعد المغرب بسلامة، وضربوا مدفع السلامة، وأرموا[32] أغراضي وقعدوا، وجاء المسلمون إلى الريس وأصحابه الذين في المركب يهنئونهم بالسلامة وأخبروهم أنهم قطعوا بغرقنا لأنهم رأونا في النظارات، ثم بعد ما صار الذي صار من المطر والريح والرعد والبرق والمركب رجع إلى وراء وغاب عن أعينهم قالوا: غرقوا بالجزم بذلك، وكانوا يتأسفون على المال الذي في المركب أكثر من الرجال، ولو كانوا إخوانهم ، ثم لما سمعوا حس المدفع هرولوا إلينا وأظهروا الفرح والسرور وحمدوا الله تعالى.

مكة

وصلنا إلى مكة المشرفة ليلاً، ودخلنا الحرم، فرأيت الكعبة المعظمة وأرض الحرم خلاف الظاهر أخرى، فسبحانه الفعال لما يريد، تولى النهي عن التزكية للنفس بقوله (ولا تزكوا أنفسكم)[33] لكنت أخبرتُ كناية هنا بما أراني يقظة، وبقيت في رؤيتي تلك برهة من الزمان إلى أن صرت أراهما مثلما يراهما الناس، وما أخبرت أحداً بذلك. ثم قعدنا في مكة نحو أربعين أو خمسين يوماً، ونحن نزور الأماكن المشهورة هناك للزيارة إلى أن جاء الحج المصري والشامي [فـ] حججنا .

مصر مرة أخرى

ورجعنا إلى مصر ، ثم من مصر جئت إلى الشام.

32- لعله أراد: ورموا.

33- النجم، آية ٣٢.

الشام

ثم بعد ثلاثة [أو] أربعة أشهر، وأنا في المدرسة المعروفة عند أهل دمشق بالبدرائية[34] شرقي الجامع الكبير[35]، قريبة منه، ودار شيخي المشهور بدرويش مصطفى -قدس الله القدوس روحه- شمالي المدرسة، وكان أعطاه السيد الحسيب الفاضل جناب يحيى أفندي بن العلامة النِحرير الشريف المكرم جناب حسن أفندي نقيب [الـ]سادة الأشراف بدمشق سابقاً رحمهم الله تعالى، أما يحيى أفندي [فإنه] مات في اسلامبول ودفن بأسكي دار[36] ، ووالده حسن أفندي بالشام ودفن في تربة مرج دحداح الصحابي[37] رضي الله تعالى عنه.

طرابلس

ثم نحن ذهبنا إلى طرابلس الشام مع الشيخ بخمسة أشهر بعد إخباره إياي برؤيا، ثم نزل الشيخ عند السخي الجواد درويش حسن، [و] كان من أكابر الرجال، ترك الدنيا في جون طرابلس[38] مدة، ونحن جماعة الفقراء معه، ومرض الشيخ عند[ه] ، ثم إنا مع بعض الأخوان ودَّعنا الشيخ بنية الذهاب إلى مصر والحجاز ثانياً.

34- تنسب هذه المدرسة إلى منشئها نجم الدين عبد الله بن محمد بن الحسن البادرائي المتوفى سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧، وكانت قبل بنائها داراً تعرف بدار أسامة الجيلي، ويسمى الحي الذي كانت فيه بالبدرائية، ولما تزل قائمة حتى اليوم. ينظر النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص ٢٠٥.

35- يريد: الجامع الأموي بدمشق.

36 مدينة على ساحل بحر مرمرة، في الجانب الآسيوي، وتعد القسم الثالث لاستانبول.

37- ذكر ابن كنان أن أرض مرج الدحداح هي الحد الجنوبي لصالحية دمشق، وكانت قبلاً متنزهاً جميلاً يقصده الأشراف، ثم تحول إلى مقبرة. المروج السندسية ، تحقيق محمد أحمد دهمان، دمشق ١٩٤٧، ص ٦٥.

38- الجون: الخليج الصغير.

جئنا إلى طرابلس ونزلنا دار الحاج عبد القادر بن الشكعة، وكان رجلاً صالحاً عابداً تقياً سخياً من أكابر تجار طرابلس من فلما التمس الطريق أنفق غالب ماله على الفقراء والمشايخ، منهم الشيخ العارف المحقق الشيخ حسن البغدادي[39] الساكن في البيت الذي [في] مدخل مشهد الجامع الكبير[40] الشمالي في الشام، على شمال الخارج من الجامع من باب جيرون[41]، ويقال له في زماننا لذلك المشهد مشهد المِحْيا بسبب إحياء الجمعة وليلة الإثنين فيه بذكر الله تعالى وقراءة القرآن والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنهم الشيخ عبد الرحمن السمان -رحمه الله عليه- وغيرهما من صلحاء دمشق وأيضاً حلب وطرابلس وحمص وحما. و[كان] في وقت اجتماعنا به في غاية الفقر، ومع ذلك في غاية الترقي والكفاية في العيش لصدق حاله ورضائه بالفقر ونيات قلبه، كأنه المشار [إليه] بقوله تعالى (يحسبهم الجاهلُ أغنياءً من التعفُف، تعرفهم بِسيماهُم لا يَسْألون الناسَّ إلحافاً)[42].

ووالي طرابلس في ذلك الوقت جناب الوزير المكرم سعد الدين باشا[43]، ويأخذ جردة الحج[44]، وأخوه الوزير أسعد باشا[45] أخذ الحج أربعة عشر سنة في أيام سلطان الوقت محمود[46] رحمه ربه.

39- هو الشيخ حسن بن مصطفى البغدادي القادري النقشبندي، بدأ حياته كاتباً في بغداد، ثم تزهد وحج، واختار دمشق سكناً له، حيث أخذ العلم على الشيخ عبد الغني النابلسي وغيره، وطار صيته بالعلم والصلاح، وتوفي بدمشق سنة ١١٨٢هـ/١٧٦٨م، ترجم له المرادي في سلك الدرر ج٢ ص٣٣.

40- يريد الجامع الأموي..

41 هو الباب الشرقي للجامع الأموي، وقد عرف في العصر الإسلامي أيضاً بباب الساعات ، وباب اللبادين، وهو الآن باب النوفرة . ينظر ياقوت: معجم البلدان، دار صادر ١٩٥٦، ج٢ ص ١٩٩.

42- البقرة، آية ٢٧٣.

43- من آل العظم، الأسرة الشهيرة التي حكم أفرادها ولاية دمشق في القرن الثاني عشر للهجرة (الثامن عشر للميلاد) تولى طرابلس الشام سنة ١١٥٩هـ/١٧٤٦م، كما تولى إمرة الحاج، ونقل من

وفي طرابلس [التقيت بـ] جناب العالم العلامة الشيخ محمد التافلاتي الأزهري[47] تلميذ العلامة الفهامة جناب الشيخ محمد الحنفي المصري[48] خليفة الإمام القطب الحقيقي، الشيخ مصطفى البكري الصديقي قدس الله أرواحهم. اجتمعت بهم جميعاً وتبركت بنظرهم، وطلبت منهم الدعاء، فدعوا لي. ثم اجتمعت بالسيد الحسيب السيد عثمان المصري، [و] كان له اعتقاد في شيخنا، وله اختلاط بالباشا من جهة الدنيا، رحنا إلى عنده، فلما رأيناه بلغناه سلام الشيخ إليه، وإنه في الحجرة عند الدرويش حسن، ففرح بذلك وأكرمنا، وقلنا

طرابلس إلى ولاية حلب سنة ١١٦٤هـ/١٧٥٠م. ثم تولى مرعش سنة ١١٧٠هـ/١٧٥٦م، ثم جدة ١١٧٢هـ/١٧٥٨م، وتوفي في ديار بكر سنة ١١٧٥هـ/١٧٦١م. أحمد البديري الحلاق: حوادث دمشق اليومية، تحقيق أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة ١٩٥٩، ص٧٤ و٨٤ و٩٣ و١٠٧ و١٢١و١٣٤ و١٥٢ و١٦٠ و١٩٠ و٢٣٥.

44- الجردة: قافلة مسلحة تحمل المؤن إلى الحجاج، تلقاهم في طريق عودتهم إلى دمشق، ويرأسها غالباً والي حلب، أو طرابلس، أو صيدا. ينظر الحلاق ص١١.

45- من آل العظم، أقام بدمشق والياً أربعة عشر عاماً متتالية (١١٥٦-١١٧٠هـ/١٧٤٣-١٧٥٦م) وتميزت مدة ولايته باستتباب الأمن، وفرض هيبة الدولة، نقل إلى حلب، وصدر أمر بنقله إلى مصر، ولكن لأمور بدرت منه صدر الأمر باعدامه، فأعدم وصودرت أمواله سنة ١١٧١هـ/١٧٥٧م. الحلاق ص٣٥.

46- هو السلطان محمود الأول بن السلطان مصطفى الثاني، ولد سنة ١١٠٨، وتولى السلطنة من سنة ١١٤٣ إلى وفاته سنة ١١٦٧هـ .

47- هو الشيخ محمد الأزهري التافلاتي المغربي الحنفي، فقيه أفتى في القدس، وله رسائل في الفقه وغيره. كحالة: معجم المؤلفين ج٩ ص ٣٧.

48- هو محمد المصري الأزهري الملقب بأبي السرور، ترجم له الحلاق فقال" كان – رحمه الله- عالماً فاضلاً ديناً، ومن مناقبه أنه ما اجتمع به أحد إلاّ وحصل له سرور وفرح، ولو لم يتكلم، وهذا أكبر دليل على صلاح طويته"، وتوفي سنة ١١٦١هـ/١٧٤٨م. الحلاق ص١٠٧.

له: مرادنا يا سيدنا أن تنزلنا في مركب البيلبك[49] حتى نروح إلى دمياط، وكان البيلبك راسياً في البحر تجاه اسكلة طرابلس في ذلك الوقت، فقال: على راسي إن شاء الله تعالى، ثم بعد أيام أرسلنا إلى ريس البيلبك ووصّاه.

قبرص

وسافرنا إلى أن وصلنا إلى بر القبرص، ورموا المراسي، وطلعنا إلى البر، وقعدنا أياماً. وسافرنا إلى أن وصلنا إلى داخل البحر، وما نرى [غير] السماء والماء، وكنا صائمين صوم رمضان، ونقعد مع الريس في القمرة[50]، أعني موضعه المخصوص به في المركب، غرفة في مؤخر المركب كأنها قصر الملك، في غاية الحسن والظرافة، ولها شبابيك تطل على البحر، ونحن جالسين[51] حول السفرة وننتظر المغرب، ونرى قرص الشمس يغرب في البحر، كما قال تعالى عن ذي القرنين (حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة)[52] ونحن نراها تغرب في عين الماء حتى نظن إنها ابتلت اسرعت حركات الأمواج الضاربة قرص الشمس في أعيننا، فإذا غابت في عين الماء في نظرنا نقصر. والريس في بده ساعة ينظر فيها [و] يقول: دخل الوقت والمؤذن يؤذن، فسبحان خالق الأشياء باتقان صنعه العظيم الحكيم القادر الخبير، وكل ليلة هذا حالنا إلى أن وصلنا إلى مجمع البحرين، فرأينا ما قاله الله تعالى (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان)[53] رؤية عين مشافهة، أما الحلو فماء نيل مصر يعلو ماء البحر المالح بلون البياض المزوج بالصفرة، والماء أزرق بلون السماء مد نظر العين يميناً وشمالاً كخط الجدول على صفحة الكاغد في غاية الاعتدال بحيث لا يرى فيه اعوجاج أصلاً.

49- البيلبك: ضرب من السفن البحرية.

50- القمرة حجرة القيادة في السفينة.

51- كذا يريد: جالسون.

52- الكهف آية ٨٦.

53- الرحمن، آية ٢٠.

الوصول إلى مصر

وخرجنا من البيليك بعدما ودَّعنا الرَّيس وقرأنا الفاتحة وشكرنا إكرامه ودعونا له بالعربي والتركي، إلى مركب آخر، وجاوزنا بُغاز[54] بحر النيل بقدرة الخالق الوكيل، [و] لو دخل [أحد] في هذا البُغاز بين البحرين وضرب الأمواج ذا لحية سوداء وخرج شايباً مبيض اللحية ما في ذلك تعجب، خصوصاً مثلنا الذي ما رأى في عمره هذا الأمر المهول يرى في كل موج موته، [و] ليس الخبر كالعيان، وكفى بذلك من بيان .

دمياط

ووصلنا إلى دمياط ثم منها إلى مصر، واجتمعت بأخي الشيخ حسين -رحمه الله تعالى- وقعدنا مدة [ثم] توفي أخي في بيت السيد أحمد الشرابي التاجر المذكور، ودفن بتربة قايد بك[55] قبلية البلد ، ثم مكثنا مدة وزرنا قبر السيد مصطفى البكري والشيخ محمد المفتي وأخاه الشيخ يوسف الحفني والعلماء والصلحاء أمواتاً وأحياءاً. وهذه المرة الثانية أعني المجيء إلى مصر، وفي الأولى أتى السيد مصطفى قدس سره، ومات أخي ووصى له عمامته[56] فأعطيتها إياه وقلت: يا سيدي هذه وصية أخي ادعوا له ، وفي الثانية مات الشيخ رحمة الله عليه، وخليفته المفتي رحمة الله عليه في غيبتي من مصر تلك المدة. ثم مكثت إلى أوان الحج خرجت مع بعض المجاورين في الرواق بالجامع الأزهر إلى بركة الحاج[57] موضع شمالي مصر بنحو أربع ساعات هناك

54- البغاز، وتكتب غالباً : البوغاز، لفظة تركية بمعنى : المضيق.

55 كذا كتبها المؤلف، والمشهور(قايتباي)، وهو (السلطان الأشرف قايتباي سيف الدين أبو النصر) ، تولى مصر من سنة ٨٧٢ إلى سنة ٩٠١هـ/١٤٦٧-١٤٩٥م.

56- يريد: بعمامته.

57- وتعرف أيضاً ببركة الحج، لأن الحجاج كانوا يجتمعون عندها في خروجهم للحج مع المحمل، وتقع إلى الشمال من عين شمس، وقد ردمت هذه البركة، وتحولت إلى مزارع. ينظر محمد كمال السيد محمد: أسماء ومسميات من تاريخ مصر القاهرة ، بغداد ١٩٨٦ ، ص ٤١٦.

يقعد أمير الحج حتى ينتهي أمير الركب بالتمام ثم يسافروا، وخروجي للتفرج، وتيسر لي الرواح إلى الحج، ودعت أصحابي هناك،

قلعة الوجه

وذهبت مع الحج إلى أن وصلنا قلعة الوجه[58]، والناس في تعب من قلة الماء، وما لقينا الماء. وثاني مرحلة، وهلك خلق كثير.

وصلنا إلى ماء مالح جاري وضعت عليه في القدح مقدار أربع أواق سكر حتى قدرت على شربه، فصار لي منه لين البطن، وفي ذلك اللين العافية..ثم ثالث يوم وأنا في مقدم الركب، وخلائق كثيرون ما بين راكب وماشي، ورأيت كلهم يَعدُون، فظننت أننا وصلنا إلى المنزل، وأنا راكب على ناقة غير مربوطة بغيرها، فسقتها إلى أن وصلت، فرأيت ناساً من أعراب تلك البلاد أتوا بالماء إلى هذه الأرض ينتظرون الحج ليبيعوا الماء إليهم، وأنا لما رأيت الحال نظرت يميناً وشمالاً لأرى أحداً من العرب ما يكون واقفاً عليه أحد، فرأيت واحداً جالساً وعنده قربة ماء داخل الحشيش اليابس، فقلت له: يا هب الريح! وإياك ما قال لي: ابشر! وجئت إليه، فرأيت قِربة وَسَطاً ربما تسع عشرة أرطال ماء أو أقل. فقلت له: بكم هذا؟ قال: دينار ونصف. فقلت: دينار وعشرون ديواني[59]، [فـ]زدته خمساً فرضي. ففتحت وكاها، ووضعت فمي على فمها، فكأني أشرب الحياة لا ماء الحياة إلى أن رويت. ثم سقيت الجمل إلى ن روي، وبعت الباقي بثمنه، ولو بعته بثمنه مراراً لبعت، ولكن الإنصاف من حميد الأوصاف.

58- قال كبريت المدني (رحلة الشتاء والصيف ص١٩٦) " الوجه هذا شعب فيه قلعة لطيفة فيها بئر وخارجها بئران، وكللها مطوية، وماؤها من السيول".

59- لم نقف على هذه العملة.

مكة

ولما وصلنا مكة المشرفة طفنا طواف القدوم، واجتمعت بشيخي الشيخ مصطفى قدس سره، جامع الركب الشامي.

المدينة المنورة

ثم جئنا إلى المدينة على نبينا وعلى حجرته الكائنة فيها الصلاة والسلام. وزرنا بقيع الفرقد، وقبر الإمام الشهيد الصهر المكرم عثمان بن عفان رضي الله عنه وعنا به آمين، في آخر المقبرة، وكنت حلقت رأسي ومعي شعره دفنته تحت حائط القبة من الخارج بنية الأمانة عنده عسي رضي الله عنه أن يشفع لي غداً، ويشهد أني موحد لا أشرك بالله أحداً. ثم ودعنا حضرته صلى الله عليه وسلم.

الزرقاء

وصلنا إلى المنزل المسمى بزرقاء من أرض الشام[60]، بينها وبين دمشق أربع أو خمس مراحل، وأنا راكب على ناقة وحدي، ما لقيت ولا جفلت وركضت وأنا متمسك خشب الرحل وأصرخ : يا الله، يا رسول الله، يا عبد القادر، يا لطيف، والأرض كلها شوك وحجارة ولا يمكنني أن أرمى نفسي منها من شدة سيرها، وأنا في غاية الخوف إذا وقعت يا هل ترى أموت حالاً أو يتعطل عضو من أعضائي أو رأسي أو وجهي، وأنا محقق في ظني أحد هذه الأحوال، والناقة هذه لرجل من أهل قرى الموصل استكريتها منه في وادي فاطمة الذي بينه وبين مكة ثمانية ساعات في أشهر الأقوال، بثلاثين قرشاً إلى الشام ..

60- أصل هذا الموضع عين جارية عذبة على حافة مجراها قصب كثير الالتفاف فينعكس لونه في الماء فيرى أزرق لصفائه، فلذلك سميت بالزرقاء، وقد مر بهذا الموضع الشيخ عبد الله السويدي (النفحة المسكية في الرحلة المكية، بتحقيقنا، أبو ظبي، ٢٠٠٣، ص٢٩١) فقال" وحول هذه العين من جهة الفوق قلعة صغيرة تسمى بقصر شبيب، وفيها حراس يتعاقبون كل عام، وعلى شرقي النهر الجاري منها بركة قديمة خراب، وحولها عمارة، وأثر بناء قديم، والكل خراب".

وسرنا إلى أن وصلنا إلى باب الله[61] قريباً منه، وأنا من ازدحام الناس المتفرجين مشغول بالنظر إلى الخلف، وإذا بالناقة جَفَلَت، وما رأيت نفسي إلاّ أنا على الأرض المُحجَّرة كأنها مفروشة بالحجارة قصداً ورسنها في يدي لم يزل، والناس من قالوا الله الله يا لطيف! وركض بعضهم إلي وقال لي: إن شاء الله ما أصابك ضرر؟ قلت : لا الحمد لله، وحمد معي ربه، ثم جاء صاحبها ليُركِّبني، قلت له: تمام من ربنا. وجاء ونزل في خان الباشا، وأنا جئت إلى مدرسة البدرائية، وله عـي خمسة قروش من كرائها، وما معي شيء أصلاً، وجئت إلى صاحب لي اسمه الشيخ خالد كان سمانا في الدكان الذي بجنب السيدة رقية رضي الله عنها[62] في ذلك الوقت، وهو الآن طيب بواب الكُمرك - حفظه الله تعالى- أخبرته بحالي فطلبت منه أن يُقرضني خمسة قروش إلى وقت مَيسَرة، فأعطاني – جزاه الله عني خيراً- وأعطيتهم إلى صاحب الناقة، ثم يسر الله تعالى الخلاص لي أيضاً من الدين، ثم استمر الحال إلى أن ركب علي بيك محمد بيك المشهور بأبو ذهب[63] في عسكر عظيم إلى الشام [و]هو حاكم مصر مُراده قتل والي الشام واسمه

61- موضع جنوبي دمشق في حي الميدان، جنوب باب المصلى. وكان قد اعتيد على أن يكون دخول قافلة الحاج منه. محمد بن عيسى بن كنان الصالحي: المواكب الإسلامية، تحقيق حكمت إسماعيل، دمشق ١٩٩٢، ج٢ ص٣٥٦.

62- ذكر الهروي أن قبر السيدة رقية بنت علي بن أبي طالب عليه السلام في مشهد عند جامع ابن طولون بمصر. الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق جان سورديل، دمشق ١٩٥٣.

63- نشأ علي بك مملوكاً لإبراهيم بك أحد أمراء المماليك، وترقى في المناصب حتى صار شيخاً للبلد سنة ١١٧٧هـ/١٧٦٣م، وطمحت نفسه إلى الاستقلال بمصر حتى أعلن استقلالها فعلاً في سنة ١١٨٣هـ/١٧٦٩م، ولم يلبث أن أنفذ حملة إلى الحجاز، فأخضعه لسلطته، ثم أنفذ جيشاً بقيادة محمد بك أبو الذهب لضم الشام إلى مصر، وهو الجيش الذي شاء القدر أن يلتق به المؤلف في أثناء وجوده بدمشق، وقد انقلب الأخير على سيده فقاد جيشه للقضاء على حكمه بتسويل من الدولة العثمانية، وكان جزاء علي بك أن مات متأثراً بجراحه، سنة ١١٨٧هـ/ ١٧٧٣م.

الوزير عثمان باشا[64] رحمه الله تعالى، فاتجه أبو ذهب ونصب الخيام خارج البلد من جهة القبلة، وكان بالشام عساكر ثلاثة وزراء وعسكر الشام، فصار الحرب أياماً في ناحية باب الله الذي هو في قِبليه بين أهل الشام و عسكر مصر، وقُتل اناس من الفريقين لكن الغالب من عسكر أبو ذهب، وغالب أكابر الشام هربوا والوزير أيضاً، وما بقي في البلد غالباً إلاّ الرعية، و أثناء ذلك الحال خرجتُ، أنا والسيد علي النجار، بنية الذهاب إلى حلب.

القابُون

خرجنا من باب السلام إلى أن دخلنا بستان عبد السلام القابوني بجنب قابون، وقابون اسم قرية من قرى دمشق، بينها وبين دمشق ساعة ونصف. خرجنا [و] بتنا بتلك الليلة في البستان ومعنا رجل من أهل القرية لا غير، وأهل القرية كلهم في الصالحية هرباً من عسكر الغُز[65]، ولا في البساتين أحد من أهل الشام .

قريَتين

وأصبحنا [و]رحنا إلى قرية تسمى قريتين[66]، وبجنب القرية اجتمعت بولي الله تعالى الشيخ محمد القريتيني، وقال لنا: لا تخافوا ما في شيء، ثم بتنا تلك الليلة في بيت السيد صالح القريتيني -رحمه الله تعالى وجعل الجنة مأواه- وداره دار الضيف في الخاص والعام.

64- هو عثمان باشا آل العظم، تولى دمشق سنة ١١٧٤ إلى ١١٨٥، وأمر بحرب علي بك الكبير، وهزم وانكسر جيشه، وهرب هو بينما دخل جيش أبو الذهب إلى دمشق منتصراً.

65- الغز مجموعة من القبائل التركية، يريد عسكر علي بك الكبير لأن معظم ضباط جيشه المماليك كانوا من الترك.

66- ذكرها ياقوت (معجم البلدان ج٤ ص٣٣٦) بقوله" قرية كبيرة من أعمال حمص في طريق البرية".

الدومة

وأصبحنا رحنا إلى قرية دومة[67] وهنا بتنا بها [و].

قطيف

لم نزل سائرين من غير زاد ولا راحلة ولا رفيق في غربي جبل أبو العنابة المشرف على منزل قطيف. [وهو] أول منزل ينزل إليه المسافر من الشام، بتنا بها بعد جهد جهيد تركت ذكر ذلك مللاً، واجتمعنا هناك بالحسيب المكرم جناب السيد عثمان المصري [وهو] اليوم طيِّب[68] في حلب حفظه الله تعالى، واجتمعنا به في طرابلس، رحت إلى عنده وأكرمني واستكريت بغلاً بالذي أعطاني إلى حما.

حما

ثم من حما[69] استكريت جملاً إلى حلب، لكن سمعت صاحبه يقول: هذا الجمل من جمال أبو ذهب كسبته منهم في الحرب الذي صار بينه وبين أهل الشام، فلما سمعت ذلك رميت نفسي من عليه إلى الأرض، فقال لي لأي شيء تركت؟ وكان بيننا وبين مَسرانا الذي نريد أن نبات[70] في[الخان] المسمى خان شيخون[71] ساعة، قلت: أنت تقول هذا الحمل من جِمال أبو الذهب كسبته منهم هناك، يبقى ركوبي على جمل الحرام حرام يا أخي أن كان مرادك أن تأخذ بعض ما أعطيناك لأجل هذه الساعة الباقية، الله يجعلك في حل مني. [و] مشيت إلى أن وصلنا.

67- قرية في غوطة دمشق، نسب إليها عدد من العلماء، ياقوت: معجم البلدان ج٢ ص٤٨٦.

68- يريد: على قيد الحياة.

69- في الأصل : حمى

70- عامية، يريد: نبيت.

71- خان قديم مر به محمد كبريت المدني المتوفى سنة ١٠٧٠هـ/١٦٥٩م(رحلة الشتاء والصيف ص٢٠٥) وذكر أن حوله ضيعتين، ونوه به عبد الله السويدي (النفحة المسكية ص٢١٣) بوجود قرية حوله.

حلب

ثم استكرينا إلى حلب[72]، ودخلنا مدرسة نقيب الأشراف، المشهور بَجَلَبي(*) بالجيم الفارسي بعد الموحدة من تحت، وسكانها الأكراد، وعارض البواب رفيقي حيث انه ابن عَرَب..[73] وجئنا إلى الجامع الكبير[74] جامع نبي الله زكريا – عليه وعلى ابنه السلام- ودخلنا حلب بجامعها، واجتمعنا بالرجل الصالح معتمد أهل حلب جميعاً المرحوم الحاج محمد البوّاب الكردي، أكرمنا ونحن لا نعرف أحداً ولا معنا شيء من الدنيا – جزاه الله تعالى عنا خيراً-

ثم نزلنا المدرسة الحَلَوية الكائنة على باب الجامع، الباب الغربي، في خلوة فيها، وفيها حوض ماء يسقون الناس منه ويأخذون إلى البيوت بالكُر[75]. وفي جنب الحجرة التي نحن نزلناها حجرة العالم العامل، الصالح الورع، الحسيب جناب السيد محمد الرَّحباوي، حصل منه نفع الدنيا والآخرة، وجَبر خاطرنا جبر الله خاطره من كمال رأفته، فكأنه يقربنا القرابة الصُّلبية، وهو الآن في الحياة بارك الحي الدائم في حياته، ونفع به عباده، لكن من عدم نظام الزمان لزم بيته إلاّ للجمعة ما يخرج لغيرها منذ عشرة أعوام بل أكثر..

72- أي اكترينا دابة أوصلتنا إليها.

(*) هو احمد افندي طه زاده: ولد سنة ١١١٠هـ/١٦٩٧وعين نقيباً للاشراف سنة ١١٤٧هـ، وشيد مدرسة هذه في حلب سنة ١١٦٥هـ، وتوفي سنة ١١٧٧هـ/١٧٦٣.

73- كلمة غير واضحة.

74- هو الجامع الأموي فيها، وثم اختلافات بشأن هوية صاحب الضريح الذي ينسب هذا الجامع إليه، إن كان زكريا أو يحي عليهما السلام. وقال محمد راغب الطباخ: وقد حققنا أن المدفون هنا هو رأس سيدنا يحيى عليه السلام لا سيدنا زكريا عليه السلام كما هو مستفيض ومشهور. أعلام النبلاء ج٣ ص٦٩ وج٣ص٣١٠.

75- الكر ضرب من الدواب، وهو الكديش وربما اراد بالكر حجم محدد من الماء.

واجتمعنا بصلحاء حلب وعلمائها، وزرنا الأماكن المعروفة بالزيارة هناك، إلى أن جاء الخبر أن أبو ذهب رحل عن الشام وعاد إلى مصر، وما بقي له أثر، وأهل الشام في غاية الأمان والسرور، واشتهر هذا الخبر في حلب، وثبت بالتواتر، فرحنا- نحن وأهل حلب- لأنهم كانوا خائفين منه، وكان من أهل الشام في حلب خلق كثير، ومن الذين عرفناهم السيد عثمان المصري ومحمد آغا السُّخني رحمه الله وغيرهما.

واجتمع خلق كثير، وسار ركب الحج وودعنا الأصحاب، وسرنا إلى أن وصلنا الشام، واجتمعنا بالمحبين وكانوا يوبخونا بالمزح ويقولون لنا: هربتم وتركتمونا بالكرب، يعنون جباتتنا[76] وشجاعتهم. ونقول نحن في جوابهم: مقدر ومكتوب. وكان نزولي بالشام في المسجد المنسوب إلى بيت حمزة المنسوب إليه، أعني حمزة هذا، حسن أفندي الشريف المكرم نقيب الأشراف بدمشق سابقاً- رحمه الله تعالى[77] - بتاريخ هذه الأوراق وهو سنة ١٢٠٣ عن ابنه جناب الفاضل اللبيب حمزة أفندي بن يحيى أفندي بن حسن أفندي في الحياة - حفظه الحفيظ وبارك فيه-، [وهو] رجل فصيح شجيع عارف رفيع القدر[78]، أعطاني كتابين من تأليف الشيخ عبد الغني[79] قدس سره، الواحد يقال له ديوان المراسلات[80]، والثاني جامع لرسائل عديدة جزاه الله تعالى عني خيراً، وفي ذلك المسجد جناب العارف الفاضل شيخنا الشيخ عبد الرحمن أبا الحسن بن العالم العلامة

76- عامية، يريد: جبننا.

77- توفي نقيب الأشراف هذا في سنة ١١٦٥هـ/١٧٥١م. الحلاق ص١٦٣.

78 نقيب دمشق، نفاه الي دمشق إلى القدس سنة ١١٧١هـ/١٧٥٧م. الحلاق ص٢١٨.

79- هو عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني النابلسي الحنفي، ولد بدمشق سنة ١٠٥٠هـ/١٦٤١م، وتفقه على علماء عصره ثم سلك مسالك الصوفية، ودرس في الجامع الأموي، وله رحلات عدة دونها في كتب، وكان مكثراً من التصانيف، توفي سنة ١١٤٣هـ/١٧٣٠م. المرادي: سلك الدرر ج٣ ص٣٠.

80- هو المسمى (ديوان المدائح المطلقة والمراسلات والألغاز).

الحبر المحقق العارف ملا حسن بن موسى الباني الكردي[81]، مات بالشام في حياة حسن أفندي المذكور، وقهره بالقوة والعساكر إلى أن دفنه بالتربة المنسوبة إلى دحداح الصحابي رضي الله عنه. [و] من الأكراد المانعين له عن ذلك يقولون: هذا شيخنا منا، ندفنه في تربتنا في الصالحية لتحصل لأمواتنا ولنا بركته. اجتمع منهم خلق كثير، ومن أهل الشام كذلك، إلى أن غلب جماعة السيد حسن أفندي بالقهر من الأكراد، والآن قبره عليه تابوت معروف يزار، ولما مات حسن أفندي بعده بسنين دفن قريباً منه رحمة الله عليهما وعلينا وعلى جميع المسلمين آمين.. فلما مات -رحمه ربه- بداره القريب من مسجده دفن بالزاوية الكائنة على شاطئ بَرَدَه[82] اسم نهر الشام خارج باب الفراديس الذي هو الباب الشمالي من أبواب دمشق، وكان يوم موته يوماً مشهوداً بالازدحام والبكاء..

السفر إلى اسلامبول

وسافرت مع عم هذا الشيخ إلى إسلامبول [في الـ]سنة التي انتهب فيها الحج بين قلعة تبوك[83] وقلعة ذات الحج[84]، وهو القاع الصغير، بنحو ثلاثة عشر مراحل من

81- هو حسن بن موسى الباني مولداً الكردي أصلاً الدمشقي مسكناً ووفاة. فاضل من المتصوفة، له شروح على بعض كتب الصوفية، توفي سنة ١١٦٨هـ/١٧٣٦م. المرادي: سلك الدرر ج٢ ص٣٥.

82- كذا كتبه المؤلف، المشهور: بردى.

83- وصف الرحالة الخياري هذا الموضع بقوله" إنه قلعة عامرة البناء، محكمة الوضع، شامخة الرفع، مبنية بالحجر المنحوت بين الصفرة والحمرة، حسن الإلصاق.. وبابها عقد محكم فيه كتابة على قيشاني لفظها: أمر بتعمير وتجديد هذه القلعة المباركة مولانا السلطان محمد خان عز نصره على يد العبد الضعيف محمد ابن الناشف التذكرجي سنة أربع وستين وألف.(الخياري: تحفة الأدباء، تحقيق رجاء السامرائي ج١ ص٣٧) وذكر عبد الله السويدي الذي مر بها سنة ١١٥٧هـ/١٧٤٤م إن " في القلعة حرس وعادة الحجاج إنهم يضعون أمتعتهم فيها، ولا سيما ما يتعلق بالأكل" (النفحة المسكية ص٢٩٦).

الشام، وأمير الحاج الوزير حسين باشا المشهور بابن مكي[85] رحمه ربه، وقصة هذا النهب مشهورة عند أهل دمشق حيث أخذت العرب المَحمَل الشريف[86]، وكان داخله من أموال الحجاج ما لا ينضبط لظنهم أن المحمل سالم، وهو سنة سبعين بعد الألف ومائة[87]..

وفيها مات السلطان عثمان[88]، وولي مكانه السلطان مصطفى ابن السلطان أحمد[89].

و[بينما] نحن سائرون في طريق إسلامبول رأينا الططري[90] ذاهباً إلى الشام، فسألوه: ما الخبر؟ قال: مات السلطان عثمان وولي مكانه السطان مصطفى بن السلطان أحمد. وقعدت نحو سنة ونصف بل أكثر في اسلامبول.

84- قلعة صغيرة حواليها أشجار ونخيل قليل، وفي داخل القلعة عين ماء عذب وحولها بركتان كبيرة وصغيرة. النفحة المسكية ص٢٩٥.

85- تولى ولاية دمشق سنة ١١٧٠هـ/ ١٧٥٦م، وكان قبلها يلي حكم القدس، وقد وصف بالعدل وحسن السياسة. الحلاق ص١٨٨ والمرادي: سلك الدرر ج٢ ص٦٠-٦٣.

86- ذكر البديري (حوادث دمشق اليومية ص٢١٠) إن المحمل الشريف لم يفك من الأعراب إلاّ بمائة وسبعين قرشاً.

87- وصف أحمد البديري الحلاق خبر هذه الكارثة التي حلت بقافلة الحجاج وصفاً مؤثراً، وذكر أن الخبر بذلك وصل إلى دمشق في ١٧ صفر سنة ١١٧١هـ/١٧٥٧م. وقال إن الحجاج أقاموا بعد أن فتك بهم" أربعة أيام جوعاً وعطشاً لا ماء ولا زاد، ومنهم من مات جوعاً وعطشاً وبرداً وحراً، وذلك بعدما شرب بعضهم بول بعض، وما كفى جور العربان بل زاد عليهم جور أهل معان، غضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم النيران!".حوادث دمشق اليومية ص٢٠٦.

88- هو السلطان عثمان الثالث ابن مصطفى الثاني، تولى السلطنة بعد وفاة السلطان محمود الأول سنة ١١٦٨هـ/١٧٥٤م، وكانت وفاته سنة ١١٧١هـ/١٧٥٧م.

89 هو السلطان مصطفى الثالث بن أحمد الثالث. تولى السلطنة بعد وفاة السلطان محمود المذكور توفى سنة ١١٨٧هـ/١٧٤٧م.

وجاءني مكتوب من جناب المرحوم الشيخ عبد الرحمن، أخبرني فيه وعزاني بموت شيخي الشيخ مصطفى- قدس الله روحه- ثم رجعنا إلى الشام.

ونظمت أسماء منازل طريق اسلامبول، من الشام إلى اسلامبول، في مكتوب أرسلت [به] من اسلامبول إلى الشام، إلى الشيخ عبد الرحمن، قلت [فيه] بعد الثناء والسلام:

فلما خرجنا من دمشق بدايتي — قطيف[91] بدت ليلاً بلا نهاية

فمنها إلى نبك فقارا إلى حسة — فمنها إلى حمص حماها حمايتي[92]

إلى قلعة منها مضيق[93] لأنها — بواد حواليها جبال عظيمة

فمنها إلى شغر[94] إلى الزنيق[95] التي — ترى بعدها أنطاكية في صعوبة

فمنها إلى بيلان[96] منها إلى التي — بناها سنان باشا بياباس[97] تَسَمَّتِ

90- الططري والتتري، والتتار، على اختلاف الألفاظ هو ساعي البريد فيعهد الدولة العثمانية، وربما عرف بهذا الاسم لأن سعاة البريد كانوا في بعض العهود المبكرة من التتر والأقوام المعروفة في أواسط آسيا بشدة البأس، ثم عرف به كل سعاة البريد على اختلاف أصولهم وأسرهم.

91- سيصفها المؤلف فيما يأتي.

92- هذه المواضع سيصفها المؤلف أيضاً.

93- موضع يطل على سهل الغاب ووادي العاصي من الجهة الشرقية، ضم قلعة صغيرة كانت تعد من أعمال حلب. الخياري، رحلة ج١ ص١٨٦.

94- بلدة نشأت عند الجسر التاريخي على نهر العاصي. ذكر أوليا جلبي أن فيها خان صغير على أن الأمن مفقود هناك. ينظر رحلة الخياري ج١ ص١٨٧.

95- قرية على نهر العاصي، وصفها الخياري بأن فيها خان ينزله المسافرون، عامر البناء متسع الجهات والأنحاء. رحلة ج١ ص١٨٨.

96- بلدة عامرة وصفها الخياري بقوله" بها أسواق قائمة وخيرات عامة ومسجد لطيف الشكل حسن الوضع والصياغة مفصص بالرخام الملون". رحلة ج١ ص١٩٤.

97- بلدة تبعد عن إسكندرونة بـ١٥كم، كانت في العصر العثماني مركزاً لقضاء يتبع ولاية حلب.

إلى خان قرنقلاق ومنها مصيص[98] لو تراها على نهر عظيم بجرية

إلى أدنة[99] شاقظ[100] أو إيلة[101] ولفكها[102] ترى جفته[103] خان وأولي قشلة[104] تلوة

ومن بعدها دارا تسمى قره بنر[105] إلى اسمل[106] قونية ولادق[107] برحمة

إلى الفن ناوي إلى آق شهر[108] كذا لثقله فلا ثقلاً تراه بمشية

فمنها إلى دار تسمى بلاوضون[109] بياض تلى تلك المقام بشدة

إلى خسرف باشا[110] إلى السيد[111] الذي يقال له غازي له نعم بتكية

98- كذا كتبها المؤلف، وهي المصيصة، وتقع على شاطئ نهر جيحان.

99- أدنة، بتفخيم الدال، وربما كتبت أطنة وأذنة، مدينة تقع على شاطئ جيحان.

100- مدينة تقع على نهر جافت، اشتهرت بجودة أعنابها.

101- هي أيلة ابن رمضان، أرض رملة بين جبلين، رحلة الخياري ج١ ص٢٠١.

102- لفكة، بكسر أوله، وصفها كبريت المدني بقوله" قرية لطيفة ذات أشجار يانعة وريفة". وقال الخياري" ينزلها الكثير من التجار".

103- في رحلة الخياري ج١ ص٢٠٣: شفة خان، منزل فيه نهر بين جبلين متقابلين.

104- أولي قشلة، ويقال لها خان محمد باشا، وهي بلدة متسعة تحيط بها جبال غير مرتفعة. رحلة الخياري ج١ ص٢٠٥.

105- بلدة يعني اسمها العين السوداء، كان فيها خان وجامع يردها المسافرون. رحلة الخياري ج١ ص٢٠٩.

106- أسمل نوه بها كبريت المدني بقوله" قرية لطيفة". رحلة ص١٩٣.

107- سماها الخياري: لادك. وقال" بها مسجد عامر وله منارة قائمة وبيوت مرتفعة على جبل أو تل". رحلة الخياري ج١ ص٢١٤.

108- ومعناها المدينة البيضاء، وصفها الخياري بقوله" قرية قائمة عامرة بها خانان، ينزلهما المسافرون، وغيرهما مما يد للكبراء، ومساجد عظيمة". رحلة ج١ ص٢١٨.

109- في رحلة الخياري: بلاودون.

110- بلدة سماها الخياري: بياضة، وهي قرية يكثر الثلج على جبالها. محمد كبريت المدني: رحلة الشتاء والشتاء ص١٨٩.

إلى بلدة[112] كالشام أعني لها شبه	تسمت بأسكي شهر فيها طرافة
ومنه سكت[113] اسكت لثلج وكربة	فجاج وأرياح وتيه وحيرة
فمنها إلى خان الوزير[114] وبعدها[115]	ترى بلدة للفكه بأربع ساعة
ترى دار شزنيك[116] منها إلى التي	سمت بدروند لكبير منحة
وقرضلي منها إلى أسكي دارنا	بها ينزل السلطان في يوم نزهة
وفيها ترب دار الملوك بجاهها	وبينهما البحرين تلقى كموجة
يقال لها اسلامبول تركية اسمها	حماها من الآفات رب البرية
فهذي المنازل يا ملاذي وسيدي	ويا خير من يرجى لكشف بليتي
دخلنا إليها يوم الاثنين قد مضت	ثلاثة أيام بولى جمادة

التوجه إلى بغداد

ثم بعد مدة ذهبت إلى بغداد على طريق البرية مع جناب المفتي النجيب الحسيب المكرم السيد أحمد بن المرحوم السيد علي المعروف [بـ]جمال البغدادي، وأخذت في هذه السفرة في منزل من منازله بنحو اثني عشر منزلاً من دمشق إلى المنزل المذكور..

111- هو المنزل المعروف بسيد غازي، ولقب ببطال غازي، وقيل أنه السيد جعفر المشهور بالمدني وقال كبريت إنها سميت باسم فاتحها سنة ٩٢٠هـ.

112- مدينة كانت أولى عواصم العثمانيين في الأناضول. وصفها كبريت المدني بقوله" حفت بالأشجار، وجرت بين رياضها الأنهار.. وبها النهر التيار الذي لا يجاز إلاّ من جسره". رحلة الشتاء والصيف ص١٨٩.

113- موضع وصفه الخياري بأنه فيه مسجد فيه قبة عالية مغشاة بالرصاص، وبه من العنب بنوعيه. رحلة

114- خان ينسب بناؤه إلى الوزير سنان باشا. وصفه الخياري بقوله" به البساتين عامرة والأسواق قائمة بحيث لا يوجد بها كثير مما لم يوجد بغيرها، وبها مسجد عامر وخانان جديدان".

115- في رحلة كبريت المدني ص١٨٩ " لفقة قرية لطيفة، ذات أشجار يانعة وريقة".

116- هي أزنيق، بلدة مسورة بها الجداول والأشجار المختلفة الثمار على ما وصفه كبريت المدني (ص١٨٩)، وتبعد أزنيق عن استانبول بـ٩٠ كلم، واسمها القديم نيقيا. ينظر قاموس الإعلام ص٨٥٢.

هيت

ثم بعد أيام وصبنا هيت، وهي على شاطئ الفرات بينها وبين بغداد ثلاث مراحل، ومنها العارف الفرد الولي الكامل المحقق جناب الشيخ علي الهيتي[117] -رضي الله عنه- الذي كان جالساً تحت كرسي القطب الغوث شيخ مشايخ العالم الشيخ محيي الدين عبد القادر الجيلي رضي الله عنه حين تجلّى الحق على قلبه.. والشيخ علي هذا من أكابر الأولياء المتصرفين رضي الله عنه، روي عنه أنه قال : لو وقعت في العالم حادثة ولا أعلم بها تنفطر مرارتي!. وري عنه أيضاً هذه الأبيات الثلاثة في التوحيد، وهي:

إن رحت أطلبه لا ينقضي سفري   **أو جئت أحضره أو عشت في الحضر**

فما أراه ولا ينفك عن نظري   **وفي ضميري ولا ألقاه في عمري**

فليتني غبت عن جسمي برؤيته   **وعن فؤادي وعن سمعي وعن بصري**

...

قصر على الفرات

ثم ركبنا من الهيت السفن، وسرنا يومين، وطلعنا في البر في شط الفرات[118] عند قصر والي بغداد على شاطئ الفرات وبتنا تلك الليلة هناك.

117- هو الشيخ العارف بالله علي بن أحمد بن أبي نصر الهيتي، من أكابر مشايخ العراق، سكن بلدة زريران من أعمال نهر الملك إلى أن توفي بها سنة ٥٦٤، وقد عمرت قبته السيدة زمرد خاتون زوجة الخليفة المستضيئ بالله سنة ٥٨٠، وهو من مريدي السيد الشيخ عبد القادر الجيلاني، وله أخبار تدل على معرفة الجيلاني بمكانته. ينظر ياقوت: معجم البلدان ج٣ ص ١٤٠ والشطنوفي: بهجة الأسرار ص ٢٢٠ والشعراني: الطبقات ج١ ص ١٦٠.

118- لم يتحدد لنا موقع هذا القصر وهوية بانيه من ولاة بغداد.

بغداد

ثم ركبنا ثاني يوم إلى أن دخلنا دار السلام بغداد بعد يومين، ثامن شهر شوال سنة ألف ومایة وخمسة وثمانين[119]. وزرنا من كان هناك من الصالحين والأولياء والعلماء، إلى أن اجتمعت بالسيد الحسيب العالم المحقق الأديب جناب العارف بالله السيد ابن السيد، إبراهيم المَندنيجي[120]، في زاويته. وتَرَّحب بنا وأطلعني على رسالة له ألفها في التحدث بالنعم الإلهية عليه، وهي كراسة صغيرة، فنسختها بإذنه على خطّه، ثم قرأتها عليه، ودعا لي بالفتح -قدس الله روحه وجزاه الله عني خيراً- ..وبقيت في بغداد إلى أن ذهب الشتاء .

كركوك

ثم سافرت إلى نحو بلاد الأكراد، فوصلنا في طريقنا إلى قلعة كركوك، واجتمعت بخالي ومرشدي ملا عيسى المذكور أول الترجمة – حفظه الله تعالى- وأقمت عنده أسبوعاً.

---

119 ويوافق ١٣ كانون الثاني سنة ١٧٧٢م.

120 لم يذكر اسمه، وذكر اسم أبيه، وهو السيد علي بن إبراهيم البندنيجي، شاعر غلب عليه التصوف والزهد، ولد سنة ١١٢٣هـ/١٧١١م،وانتظم أولاً في خدمة الشيخ أحمد الموصلي، وكان ذا تكية في الجانب الغربي من بغداد، ثم أنه اختفى مدة سبع سنين، عاد بعدها إلى بغداد لينشئ " تكية روحانية ورباطاً نورانياً تأخذ بالألباب في مدينة بغداد برج الأولياء ونزل الأتقياء، دار السلام، فبسط فيها حصيرة الإقامة والسكن". وعرفت هذه التكية بالتكية البندنيجية، ثم بتكية المندلاوي، نسبة إليه، وتوفي هو سنة ١١٨٦هـ/١٧٧٣م. أما التكية فلما تزل عامرة بروادها من المصلين والذاكرين حتى اليوم، وهي قريبة من شارع الشيخ عمر السهروردي بالجانب الشرقي، ينظر عبد القادر الشهرباني: تذكرة الشعراء، الأصل الكامل، بتحقيقنا، بغداد ٢٠٠٢، ص١٧٦، ومختصره بتحقيق أنستاس ماري الكرملي، بغداد ١٩٣٦،ص٢٨ ومحمد سعيد الراوي: خير الزاد في تاريخ مساجد وجوامع بغداد، بغداد٢٠٠٦، ص١٧١-١٧٣

كوي سنجق

ثم سافرت إلى أن وصلت قصبة الحاكم على بلادنا[121] يقال لها كوي سنجق، ونزلت عند أختي خديجة رحمها الله تعالى، ثم نزلت عند ابن عمي المرحوم علي العالم الفاضل تاج العلماء، فريد عصره، ملا مصطفى ابن عمتي المذكور، وهو حفظه الله لنا خارج هذه الحكاية، وهو سنة ثلاث ومائتين وألف، في الحياة، متع الله المسلمين بطول حياته ..

وكانت غيبتي هذه عن بلادي إلى أن رجعت إليهم ستة وعشرين سنة، واجتمعوا[122] أقاربي وأصحابي لمجيئي ووصولي إلى كوي سنجق وهم في غاية الاشتياق إلى الاجتماع بي، وما بهم استطاعة إلى المجيء إلى كوي، ثم صرت أدور عليهم قرية قرية، وفي كل قرية أتوجه إليها يخرجون جميعهم إلى ملاقاتي بنحو ساعة وأكثر، حتى صرت كالنبي في أمته، والناس يتعجبون من هذا الاحترام ومن هذا الازدحام ، حتى الأولاد والأطفال كانوا يتبركون بي ويقبلون يدي ويمسحون بها على اللباس ثم يمسحون وجوههم بأيديهم ، وأنا أشاهد فعلهم هذا معي، وأنا أتعجب من عقيدتهم هذه، وأقول في قلبي سرّاً: اللهم اجعلني خيراً مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون، وأجِرني من مكرك، وانفعني بهم، وانفعهم بي، ولا تحجبنا ببعضنا بعضاً عنك، يا شهيد على كل شيء، لا إله إلا أنت الفعال لما تريد، أسألك الحفظ بك من الاغترار بظاهرك، يا من لا تعد مظاهره ولا تقدر فيها وبها وأنت الله المطلق المحيط المهيمن الظاهر الناصر الولي الوكيل الفعال لما تريد، اللهم إني أسألك تمام العافية ودوام العافية والشكر على العافية، يا من بيده ملكوت كل شيء وأنت الغني عن كل شيء وكل شيء، مفتقر من كل وجه إليك، يا سميع يا مجيب يا وهّاب يا كافي آمين. فصارت شهرتي في البلاد ونواحيها شهرة شيخ مرشد بل نبي مرسل،

121- وكان أمير كوي سنجق يومذاك محمد باشا بن خالد باشا البابانى (١١٧٨-١١٨٦هـ/١٧٦٤-١٧٧٢م). ينظر رسول حاوي الكركوكلي: دوحة الوزراء، ترجمة موسى كاظم نورس، بيروت ١٩٦٣، ص١٣٥ ورحلة ريج سنة ١٨٢٠، ترجمة بهاء الدين نوري ص٢١٥، وكتابنا: الأسر الحاكمة ص٢٦٧.

122- على لغة أكلوني البراغيث، يريد: اجتمع.

سبحان الفعال لما يريد، وصرت لما رأيت هذا الخلق معي بهذه العقيدة وأنـ[هم] لا يخالفوا أمري آمرهم بالتوبة وأنهاهم عن المعاصي، فصاروا يتوبون وينتهون، إلى أن اشتد الظهور والشهرة إلى أطراف البلاد البعيدة، وحصل لي القبول التام..

ومكثت في بلادنا حولاً، صيفاً وشتاءاً على هذا الحال في البلاد، حتى يفتخر الذي أنزل عنده، والقرية التي أدخلها، على غيرها، ويأتيني العتاب من الناس من غير بلادنا لعدم ذهابي إليهم ليتبركوا بي، وأنا إلى الآن في عقائد الناس وما يظنون في من الخير، وأنا لا أحس في نفسي بغير التقصير المفرط حتى الغالب على ظني أني كافر لست بمؤمن، قريب عن أن أكون مؤمناً فاسقاً، أرجو رب محمد صلى الله عليه وسلم أن يميتني والمسلمين أجمعين على الإيمان في عافية أنه سميع مجيب والفضل العظيم، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم، ويخبرني الهندي أنه سمع باسمي في آخر الهند، والأغواني[123] في بلاد هَرات[124]، [وهي] مدينة كبيرة حاكمها الأغواني[125] من أهل السنة والجماعة، ومن أطراف بغداد والعراق والأكراد وقسطنطينية ومصر والحجاز وحلب وديار بكر ورُها وغير ذلك، وفي الشام مدينة دمشق هي منزلي الآن بتاريخ هذه القصة وهو سنة ثلاث ومائتين بعد الألف .

ومكثت في غاية العز والسرور من كل وجه ثلاثة أعوام في بلاد الأكراد على ما ذكرت إلى أن خرجت منها قهراً عني وعن أهل البلاد، ما بين أقاربي والأصحاب والمريدين وغيرهم حتى صار عندهم جميعاً كما صار بموت النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه من البكاء والحيرة والدهشة والخرس، وجاءوا معي مقدار ثلاثة أيام

123- الأغوان لغة في الأفغان.

124- هرات: ولاية في أقصى الجزء الشرقي من بلاد أفغانستان، مركزها مدينة هرات التاريخية، على نهر هري رود.

125- وهو يومذاك أحمد شاه الأفغان من قبيلة الأبدالي، المتلقب بدر دران، استقل ببلاد الأفغان بعد مصرع نادرشاه، ولبث حاكماً مطلقاً لها ولممتلكات أضافها إليها بفتوحه حتى وفاته سنة ١١٨٧هـ/١٧٧٣م، دائرة المعارف الإسلامية، مادة أفغانستان، بقلم: وكب.

يودعوني مع البكاء رجالاً ونساءاً حتى وعدتهم بالرجوع إليهم إن شاء الله تعالى، والقسم إن قدّر الله تعالى اطمئناناً لخاطرهم، سبحان المؤلف بين القلوب.

عقرة

ودخلنا مدينة عقرة من بعض بلادنا، حاكمها الفاضل العارف الحسيب النسيب المكرم العادل، حسن السيرة في ذلك الإقليم، المشهور بالحسب والنسب كابراً عن كابر، جناب الأمير الأديب المرحوم فتح الله بيك[126] ، فنزلت في جامعها والجماعة الذين معي. ولي فرس مُعشّر وما لي خبر بذلك، أعطانيها ابن عمي المرحوم محمد الذي ما سماني محمداً إلاّ بعدما سماني به لأجل [أمر] ذكرته في أول الترجمة، المرحوم أيضاً رسول بيك بن محمد بيك بن الأمير سليمان بن الأمير محمد ، وجدي هذا الأمير سليمان له من الذكور الأولاد عشرون غير أبي. واجتمعت – وعمري سبع أو ثمان سنين – بغالبهم، رحمهم الله تعالى. وجد والدي الأمير محمد هذا شهرته في بلاد الأكراد شهرة عنتر العبسي[127] في السير، حج رحمه الله تعالى مع جد أبي والدتي العالم النحرير العامل النضير، التقي الولي المشهور، ملاّ محمد، رحمه الله تعالى. كراماته كثيرة، وأخبرتني والدتي ببعضها، رحمها الله تعالى، [و] لو ذكرت ترجمته هنا، وحال طلبه العلم في صغره، وما جرى له، أو حاله في كبره، وتدريسه وصلاحه وزهده وورعه، لطال بنا ما نطلبه، وفي هذه الكلمات كفاية لذكر فضله – قدّس الله سره – وذلك سنة ألف ومائة

126- ترجم له ياسين العمري (غاية المرام ص ١٠٧) بقوله" فتح الله بك أحد أمراء العباسيين، كان رجلاً صالحاً تقياً، لم يعرف حساب الدراهم فضلاً عن الدنانير، ملك العقر من أيام بهرام باشا ﴿وهو أمير العمادية قاعدة الإمارة العباسية في بهدينان﴾ إلى أن حصلت المنافرة بين إسماعيل باشا وأخوته، فأعطى العقر لاخوته، وأعطى المترجم مدينة شوش، فأقام بها إلى أن مات سنة ألف ومائتين واثنين".

127- في الأصل عنطر.

وعشرين تقريباً[128]. واجتمعنا بالصالحين والعلماء في حلب والشام والمدينة ومكة، وفي الطريق، وانتفعنا بهم على ما حكي عنهما وأنا ابن عشرة أو خمسة عشر سنة. وجد أبي هذا المرحوم الأمير الحاج محمد خطب والدتي خديجة الصالحة العالمة السخية التقية المرحومة، التي ماتت في دمشق في بيت من بيوت السيد الحسيب حسن أفندي بن حمزة النقيب، سادة الأشراف سابقاً في دمشق، في حارة باب السلام[129]، شمالي جامعها، مما يلي الشرق، يوم الإثنين وقت العصر سنة ١١٨١[130]، وصلي عليها في جامع بني أمية، تجاه ضريح نبي الله يحيى عليه السلام، قبيل المغرب، في جم غفير، ثم دفنت في سفح جبل قاسيون تحت مغارة جوعية[131] غربي قبر سيدي ومرشدي المذكور الشيخ مصطفى المشهور عند الأكراد بدرويش مصطفى البلباسي — قدّس سره، ونفعني الله تعالى والمسلمين ببركاته في الدارين آمين - قبيل المغرب، بل بعده، رحمة الله عليها، فجزاها الله تعالي الكافي عني الفردوس آمين، من الشيخ العالم جدي، والد أمي، الشيخ ملا محمد — رحمه الله — لأبي المرحوم يحيى. وكان والدي قبل تزوجه بوالدتي له زوجة من أقاربه اسمها زليخا رحمها الله ، وله منها أولاد ذكور وإناثاً، [هم] علي وحسن وعبد الله وخديجة وأسمة وغيرهم، رحمهم الله تعالى..

وكان والده، أعني جدي، أمير العشيرة[132]، وله محبة لوالدي دون أولاده مثيرة، وأخبر والده بالذهاب إلى الحج، وكان في ذلك الوقت الناس يحجون على طريق بغداد مع الركب المعلوم هناك إلى مكة بالعساكر من طرف والي بغداد، فجهز جدي والدي

---

128 ويوافق أولها ٢٣ آذار سنة ١٧٠٨م.

129- نسب إلى أحد أبواب دمشق، أحدثه السلطان نور الدين الشهيد. ابن كنان: المواكب الإسلامية ج١ ص٢١١، ٢١٥.

130- أيار سنة ١٧٦٧م.

131- الجوعية مغارة في أعلى مقبرة الخميسات في قاسيون، يذكر أنه لجأ إليها أربعون نبياً خوفاً من الكفار. المواكب الإسلامية ج١ ص٢٧٦.

132- يريد عشيرة خوشناو، التي ينتسب إليها المؤلف.

بالأسباب، وكتب له مكتوباً إلى والي كوي سنجق، وأوصاه في المكتوب أن يرسله إلى والي بغداد، ويوصيه في المكتوب به، ويخبره [أن] الواصل إلى جناب مولانا المكرم، وكيل السلطان، والي بغداد حالاً [133] - حفظه الله تعالى ونصره- ولدنا يحيى بن سليمان، [و] أن يرسله إلى مكة مع الركب، ويوصي أمير الركب به ذهاباً وإياباً. فلما وصل إلى بغداد [وهو] في غاية العز والفرح، اجتمع هناك بسيدي ومرشدي المذكور الشيخ مصطفى، قدس الله روحه، وحشرني الله معه ببركاته والمسلمين آمين. وكان الشيخ في ذلك الوقت قريب عهد بشيخه الغوث الشيخ أحمد الحصاوي، رضي الله عنه وعنا به آمين. والغالب عليه الجذب، فلما رآه والدي بشره بالحج والرجوع منه سالماً.

قنديل

ثم بعد إقامتي في البلاد ثلاثة أعوام حين رجعت إليها بعد مضي ستة وعشرين سنة، من بلاد الشام إلى بغداد، ومنها إلى بلادنا، قصدت الرجوع إلى الشام.

ثم سافرنا بعد وداع شقيقتي القارئة للقرآن، الصالحة الموفقة، آسية أم حسن، زوجة العالم النحرير الفاضل الكامل في العلوم الرسمية[134] لها، العارف ملا مصطفى ابن عمي، المرحوم الصالح أبي محمد علي الفقيه الناسك، رحمه الله، ووداع أقاربي وأصحابي الذين تابوا على يدي، إلى أن وصلنا إلى قرية، وهي على ثاني فروع من أصول دجلة، بعد ادلائها من ثلاثة أنهر، وكل واحد يقال له زاب. الواحد أصله فوق بلاد ديار بكر إلى أن يمر بجزيرة ابن عمر، ومنها بالموصل، إلى أن يجتمع بهذا الذي قرية قنديل على شاطئه تحت مدينة الموصل بيومين، وهما يجتمعان بنهر كوي سنجق الذي يقال له زاب، بحيث مجمعهما بيوم ونصف أو أكثر فيصير واحداً، وهناك يقال له بلسان الكرد يك آب، بفتح [الياء] التحتية، وإسكان الكاف بعدها، ثم ألف ممدودة ، فباء موحدة من تحت ساكنة،

133- هو والي بغداد سليمان باشا الكبير، تولاها من ١٥ شوال ١١٩٣ إلى وفاته في ٨ ربيع الآخر سنة ١٢١٧هـ/١٧٧٩-١٨٠٢م.

134- كذا في الأصل.

ومعناه بالعربي ماء واحد، لأن الأنهر الثلاثة صاروا واحداً. ثم يمشي نحو خمسة أيام إلى أن يمر بجنب بلدة تكريت، ومنه بنحو ثلاثة أيام يمر بجنب مدينة دار السلام بغداد غربيها، ويقال له دجلة... [135]أعني نهر بغداد، كما ذكره العلامة الدواني[136] في رسالته التي سماها باسمه (زوراء). ثم فارق بغداد بنحو ثلاث ساعات ليجتمع أيضاً بنهر كبير يقال له ديالة[137]، بكسر الدال، وياء ممدودة، ولام وهاء مربوطان ، مفتوح لامه، ثم يجري إلى أن يجتمع بعد مسافة ثلاثة أيام بنهر الفرات المشهور، المذكور اسمه في الحديث. ثم من هناك هذه الأنهر الخمسة يسمونه شط العرب، إلى أن يمر بقرية القطب الرفاعي أم عبيدة، وبمشهد الإمام علي – رضي الله عنه- وبعده إلى بصرة[138]، ومنها إلى البحر المالح الهندي وبحر اللؤلؤ ومسقط و اليمن وجدّة.

قصروك

وفي قبالة القرية المذكورة قنديل قرية على الشاطئ الثاني يقال لها قصروك، تصغير القصر. وأهل هاتين القريتين من المشايخ والعلماء وأصحاب الخير الضيوف، على مرور الزمان، شهرتهم في نواحي بلادنا كالشمس في ظهيرة النهار، بارك الله في ذرياتهم وفيهم. [وكان قد] مات شيخ هذه القرية الثانية[139]قصروك، الصالح الفاضل التقي،

135- كلمة غير واضحة في الأصل.

136- هو العلامة محمد بن أسعد الصديقي الدواني الشافعي، جلال الدين، اشتهر بالحكمة والمنطق ، فضلاً عن علوم عصره الأخرى، وله مؤلفات عديدة، منها (الرسالة الزوراء) التي يشير إليها المؤلف هنا. وترجمته في السخاوي: الضوء اللامع ج٧ ص ١٣٣ وابن العماد: شذرات الذهب ج٨ ص ١٦٠ .

137- كذا كتبه المؤلف، والمشهور (ديالى)، النهر المعروف في شرقي بغداد.

138- من الواضح أن معرفة المؤلف بجغرافية جنوبي العراق لم تكن دقيقة، وإلاّ فإن نهر ديالى لا يصب بنهر الفرات، وأن قرية أم عبيدة، حيث مرقد الإمام أحمد الرفاعي لا تقع على أي من نهري دجلة والفرات، بينما تقع النجف قريبة من الفرات، وكلاهما يقعان في شمالي ملتقى النهرين في شط العرب لا جنوبيه كما هو معلوم.

139- في الأصل (الثاني).

في مكة المشرفة، الشيخ محمد- رحمه الله تعالى- سنة ١٢٠١، ودفن بالمعلى. وبتنا ليلة في قنديل عند شيخها الفاضل العلامة الشيخ فتحي، وأخيه العالم النحرير الصالح ملا محمد – حفظه الله الحفيظ، ومتّع المسلمين بطول عمره، ودوام بقائه- وهو بتاريخ السنة المذكورة التي قيدت هذا التاريخ فيها، وهي سنة ١٢٠٣، في الحياة ، أدام الله حياته، آمين. [وبتنا] ليلتين[140] في قصروك.

قرية لم يذكر اسمها

وسرنا منها إلى أن دخلنا عشاء إلى قرية الشيخ الصالح الكريم العارف، والد مفتي مدينة عقرة، الفاضل العلامة، المرحوم ملاّ محمد. [وكان] قبض عند دخوله المدينة المنورة على من حجرته المقدسة، فيها رسول الله [عليه]الصلاة والسلام، وعلى آله وأصحابه ..[141]، ودفن بالبقيع الفرقد – رحمه الله رحمة واسعة- في سنة واحد ومائتين وألف، وكان رفيق الشيخ محمد المرحوم المذكور شيخ قصروك.

عقرة

وبين قصروك وبين عقرة يوم كامل للراكب الجد. واجتمعت بأمير الأمر الجناب المكرم الأديب ، والي عصره، الأمير فتح الله بيك ، المرحومِ اليومِ – رحمه الله تعالى – في قلعتها، مع جناب العارف الكامل الفاضل الحسيب أباً وجدّاً، المرحوم الآن، الشيخ يونس الشوشي – رحمة الله تعالى عليه- فرأيت الأمير المزبور من أكابر العارفين. والشيخ يونس حوت يونس عليه السلام في بحر المعارف، وأخذت دعاءهما وتبركت بنظرهما. واجتمعت بجناب الفاضل خطيب جامعها ملا طه -أدام الله أيامه وبارك فيه- وتبركنا بنظره ودعائه. وهو صار سبب اجتماعي بالأمير المذكور والي عقرة [إذ] أخبره عني.

140- في الأصل (ليلتان)

141- كلمة غير واضحة.

قلعة عقرة

فلما أصبحنا وارتفعت الشمس جاء إلى عندي وسلم علي وصافحني، فقال لي: إن كنت تريد الذهاب إلى جناب الأمير كما وعدتم البارحة تفضل! [فـ]ـقمت مع بعض الفقراء أصحابي وملا طه، فصعدنا تكلفاً لأن الطريق إليه نحو ميل[142]، فمشى هو بنا، [و] ربما في بعض المواضع أضع يدي على الحجارة الكائنة في جانب الطريق خوفاً من الوقوع والسقوط إلى وراء، وهكذا نمشي حصة ونجلس حصة إلى أن قربنا من باب القلعة، فسبقنا ملا طه ليخبر جناب الأمير فتح الله بيك أن الشيخ جاء. ونحن جلسنا عند باب القلعة ننظر إلى البلد كأنه ما هو البلد الذي جئنا منه لعلو القلعة نراه بعيداً، [فـ] سبحان الخالق المصور، لا إله إلاّ هو!. وانتظرنا برهة من الزمان إلى أن جاء وقال تفضلوا إلى عند جناب كتخدا علي آغا، والأمير ذهب إلى تربة أمواته، وهناك زاوية فيها رجل درويش من بلاد بلخ وبخارا ماله[143] أيام كثيرة جاء إلى هذه الولاية وسكن تربة أموات الأمير، والأمير اجتمع به مرتين وثلاث، فكأنه استلذ صحبته [فـ]ـراح إلى عنده، وأيضاً يزور أمواته. وأخبروا جناب كتخدا علي آغا بمجيئنا [و] كان جالساً في مجلسه مع بعض الناس وبينه وبين قصر الأمير مقدار صوت الإنسان. وقصر الأمير معلق مبني فوق باب القلعة، الباب الذي يلي جهة البلد، ولها باب آخر إلى جهة الجبل والوادي الذي فيه تربة أمواته. وجئنا إلى أن دخلنا على كتخدا علي آغا فسلمنا عليه، ورد علينا السلام، وترحب وأهل وسهل، وأمر لنا عاجلاً بالقهوة، واعتذر عن الأمير، وأخذ بخاطرنا، فرأيته رجلاً عاقلاً أديباً لبيباً

142- تقع قلعة عقره في أعلى الجبل المعروف بجبل عقره، وعلى سفحه الأدنى تصطف بيوت البلدة، وبعد آخر بيت في ذلك السفح، يبدأ طريق جبلي غير معبد يصعد فيه إلى تلك القلعة، وقد عمرها السلطان حسين بن السلطان حسن العباسي أمير بهدينان سنة ٩٥٦هـ كما ورد في كتابة تذكارية في لوح من الرخام وجدت في القلعة، على أن كثير من منشآتها يرقى إلى عصور سابقة، وهي منحوتة في معظمها في صخور الجبل.

143- كذا في الأصل، ويناسب أن تكون: صار له.

شجاعاً صورة وسيرة حلو المنظر جميل الصورة، تلوح البشاشة على وجهه، وهي غالباً دليل السخاء والكرم في الإنسان. وأرسل واحداً إلى الأمير يخبره بمجيئنا، ثم قال: وأنا أرجو دعاءكم، [فـ] ـمرادي السنة الحج، ونصير رفيقكم في الطريق إل الشام. فلما سمعت منه هذا الكلام فرحت باطناً، ودعوت له بالتيسير والتوفيق، ولأصحابه وللحاضرين. ونحن في المسامرة وإذا بالرسول الذي أرسله خلف الأمير جاء وقال له: جاء الأمير، وقام مسرعاً مهرولاً إلى قصر الأمير ثم إلينا، وأحد من طرف الأمير يقول لكم جناب الأمير تفضلوا. فقمنا وجناب الخطيب ملا طه وكل من هناك، [و] توجهنا إلى جهة قصر الأمير، فلما وصلنا إلى قريب درج الإيوان استقبلونا الخدم وأصحاب الأمير والخواص منهم، وقبلوا يدي واحداً وراء واحد. وجناب علي آغا خرج من القصر جاء ليدخلني على الأمير في القصر، فأسرع بعض الخدم إلى رفع الستارة من على الباب وقدامي كتخدا علي آغا، فدخلنا القصر وسلمنا على جناب الأمير، فقام لي وعنده جناب الفاضل العارف الشيخ يونس المذكور الشوشي رحمه الله تعالى، فرحب بي وأجلسني إلى جانبه، فصار جلوسي بين الأمير والشيخ يونس وعلي آغا واقف وبعض خواصه ثم أشار إليهم بالخروج فخرجوا فما بقي في المكان غير الأمير والشيخ والفقير.. وبعد أن سكت أمر الشيخ يونس أن ينشد وأنشد بعض الكلام بالكردي وبالعربي، ثم أمر لنا بالقهوة، ثم نادى إلى جناب علي آغا فدخل، فقال لي الأمير: ما أدري انا أوصي علي آغا فيك أو أنت في علي آغا، فقلت له: لا توصي أحدنا بأحد بل سلمنا كلنا إلى الله تعالى، فأسر بذلك ودعا لنا. ورأيته عارفاً هو جداً، مؤنساً أديباً، ذا لحية بيضاء، ووجهه كأنه شاب في حد البلوغ لنضارة خدوده وملاحة وجهه.. ثم قال لي : إذا رحلتم بالسلامة اجعل طريقك على جناب أخي يحيى بيك[144] أمير شوشة[145] ليتبرك بكم، وادعوا له. [و] بين عقرة وشوشة مرحلة واحدة

144- نوه به ياسين بن خير الله العمري، فقال" أحد أعيان الدولة العباسية، له فضل وأدب ومعرفة بصناعة الطب، وخبرة تامة بمعرفة الحشائش والنباتات والأزهار ومنافعها". غاية المرام ص١٠٦.

قصيرة ، وهي ذات أشجار وبساتين ومياه، وبيت الشيخ يونس فيها من زمان آبائه وأجداده. ثم قرأنا الفاتحة وودعنا بعضنا بعضاً وودعته، وخرجنا من عنده في غاية السرور..

شوشة

وسرنا إلى أن دخلنا شوشة مساءاً، وتلقونا لأجل كتخدا علي آغا، خصوصاً جناب العارف والولي الصالح الشيخ عبد الله أخي الشيخ يونس المذكور رحمهما الله تعالى.. وكان الأمير فتح الله بيك يرسل إلى الشام مكاتيب وكذلك أخوه جناب يحيى بيك والي شوشة رحمهما الله تعالى رحمة واسعة بالفارسية، وفي آخر المكتوب : إن كان لكم غرض أو حاجة ابعث اخبرنا بها لنفوز بقضائها، وأنا أرسل لهما جواب المكتوب لا أتعرض لشيء سوى الدعاء لهم والدعاء منهم والتوصية بالرعية، وأما الشيخ طه الخطيب فأرسل إلي مكتوباً بالعربية سنة اثنين ومائتين وألف..

وركبنا ومشينا نحو ساعة، وإذا نحن بمنزل جناب يحيى بيك أخو فتح الله بيك المذكور، وهو في البستان مع حريمه، وله ساباط خارج البستان جلس تحته. ونزلنا مع جناب علي آغا وجلسنا تحت الساباط والوقت وقت طلوع الشمس. أرسل علي آغا واحداً من خدمه.. بمجيئي وإياه، ومعنا مكتوب له من أخيه [وهو] بعد السلام، الواصل إليك جناب العزيز شيخنا الشيخ طه، مع عزيزنا جناب كتخدا علي آغا رايح إلى الحج. خذ دعاءه وتبرك به. ثم جلسنا حصة من الزمان وإذا جناب يحيى خرج وهو يفرك عينيه من النوم بيده، فلما أقبل قمنا له وسلم وردينا السلام عليه وترحب وسهل وأهل، وأمر لنا بالجلوس فجلسنا، وأمر بالقهوة، وشربنا.وكان رحمة الله عليه

145- شوشة، وتسمى الشوش أيضاً، قلعة كبيرة قرب عقرة. وصفها ياقوت بقوله أنها " قلعة عظيمة عالية قرب عقر الحميدية" (معجم البلدان ج٥ ص٣٠٧)، وقد برز منها علماء أعلام، ولما تزل بقاياها شاخصة حتى اليوم. كتابنا: مراكز ثقافية في كردستان ص٤٩.

كأنه قضيب خيزران أبيض اللون مشوب بالسمار قليلاً القامة[146] فصيح اللسان أظرف من أخيه كمالاً ووقارا، رؤيته تجلب النفوس إلى مودته. جلس متأدباً على ركبتيه، واعتذر بالوقت وعدم خبره بمجيئنا إليه قبل ذلك، وكلفنا أن نقعد عنده ذلك اليوم، فأبى علي آغا وقال: أما ترى دوابنا بالأحمال، وجئنا إلى جنابكم لأجل امتثال أمر جناب الأخ، وبهذا القدر كفاية، فقرأنا الفاتحة وودعناه بالدعاء، وسرنا. وما رأيت عطا منه (كذا) مع هذا الكمال الذي رأيته منه والكلام الحلو اللين كالزبد جعل الله الفردوس مقامهما وإيانا والمسلمين أجمعين آمين. وكان -رحمة الله عليه- يرسل إلى المكاتيب وأنا في الشام إلى أن توفي هو وأخوه سنة اثنين الداخل في الثالث ومائتين وألف، وصورة مكاتيبهما بالفارسية.

في الطريق

وسرنا نحو ساعة وإذا بجناب علي آغا قال لي: أنا من هنا أريد أن أفارقكم، لا تؤاخذوني، أريد الرواح إلى قلعة العمادية[147] لأجل وداع جناب إسماعيل باشا[148]، وبعد كم يوم نجتمع في قلعة زاخو، وهذا أشار إلى رجل خيال من أتباعه معكم لا

146- كذا في الأصل، ولعله أراد: قصير القامة.

147- كانت العمادية عاصمة الإمارة العباسية المعروفة بالبهدينانية، نسبة إلى أحد أجدادها الأمير بهاء الدين بن الملك خليل بن عز الدين بن محمد بن المبارك بن الخليفة المستعصم، وشملت هذه الإمارة مناطق جبلية واسعة تمتد من سفوح جبال حكاري حتى ضفاف نهر الزاب الأعلى، ثم استطاعت أن تضم زاخو ومناطق أخرى في الغرب. شرفخان البدليسي: الشرفنامة، ترجمة جميل بندي الروزبياني، بغداد ١٩٥٢، ص١٤٠ ومحفوظ العباسي: إمارة بهدينان العباسية ص٣٠-٥٢، وكتابنا: الأسر الحاكمة ص٣٠٤.

148- هو أمير بهدينان إسماعيل باشا الأول العباسي، تولى الحكم في عاصمته العمادية سنة ١١٨٢هـ/١٧٦٨م، وتوفي سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م. ينظر ياسين العمري: غاية المرام ص٢٠٩ وغرائب الأثر، الموصل ١٩٤٠، ص٤٧-٥١ ومحفوظ العباسي: إمارة بهدينان العباسية ص٨٣-٨٨.

يفارقكم، لا بأس عليكم من شيئ ، البلاد بلادنا، والرعايا رعايا الباشا، من هنا إلى حكم قلعة مدينة جزيرة [ابن] عمر[149]، أينما نزلتم تنزلون بإكرام وعز، بل إنما لا تنسانا من الدعاء، ودعينا له وودعنا، وصعد هو على جبل عال عظيم.

قرية على الطريق

ونحن سرنا في ذيل ذلك الجبل وغيره من الجبال يومنا ذلك إلى وقت المغرب، حتى دخلنا قرية بجنب نهر بين أشجار وبساتين [فـ]ـبِتنا هناك في أفرح ليلة إلى أن طلع الفجر، [ثم] قمنا [و] صلينا وفطرنا.

قرية أخرى

وسرنا ذلك اليوم إلى أن وصلنا بعد المغرب إلى قرية صغيرة، فتلقونا بالإكرام، ونزلت أنا وأرفاقي[150] في الجامع، وفرشوا لنا على ظهر الجامع، وجلسنا وصلينا المغرب ثم العشاء، ثم تعشينا، وبتنا، وصاحب علي آغا نزل عند رأس القرية، ثم صبحنا[151] بعافية من الله تعالى وصلينا الصبح.

قرية أخرى

وسرنا قبل أن فطرنا مقدار ثلاث ساعات تقريباً ووصلنا إلى قرية أخرى وهناك رجل من أكابر صلحاء ذلك الإقليم وداره خارج القرية مشهور الخاص والعام، نزل

149- بلدة تنسب إلى مؤسسها الحسن بن عمر بن الخطاب، وواضح من النص أنها كانت تعد آخر حدود إمارة بهدينان العباسية، ثم عدت، بعد سقوط الإمارة، من أعمال ماردين في ولاية ديار بكر. شمس الدين سامي: قاموس الأعلام، استانبول ١٣١٦، ص١٨٠٧.

150- يريد: رفاقي.

151- يريد: أصبحنا.

صاحب علي آغا عنده، وترحب بنا جميعاً وقدم لنا الطعام عاجلاً، وفطرنا عنده، وتبركنا به، وشربنا القهوة.. ثم صافحناه ودعينا له ولأولاده.

قرية قريبة من رأس جبل

وركبنا وسرنا بقية يومنا ذلك إلى أن وصلنا إلى قرية قريبة من رأس جبل كبير هي تحته، ونزلنا هناك على عين ماء في طرف القرية، وبتنا إلى أن طلع النهار، فطرنا وعلقنا على الدواب.

زاخو

وسرنا إلى أن دخلنا بعيد العصر قرية زاخو على نهر[152]، وهي من أعمال عمادية وحاكمها من أقارب الباشا دائماً[153] مثل قلعة عقرة أنا وأصحابي، ونزلنا في جامعها وأصحاب علي آغا نزلوا في القلعة عند الحاكم[154]، ونحن متوكلين على الذي خلقنا إلى أن صلينا المغرب، وإذا برجل من تجار البلد اسمه عبد الفتاح أتى بطعام إلينا وأمرنا بالأكل، وقال لنا : ليس من واجب اكرامكم لا تؤاخذونا [وذلك] من كماله وحسن أدبه..

152- هو نهر الخابور.

153- ضم السلطان حسن بن الأمير سيف الدين العباسي بلدة زاخو إلى إمارة بهدينان العباسية وعاصمتها العمادية، في أوائل القرن العاشر للهجرة (١٦م)، وتولاها أمراء من البيت المالك العباسي حتى سنة ١٢٤٠هـ/١٨٢٥م. كتابنا الأسر الحاكمة ص٢١٤.

154- كانت قلعة زاخو تعرف أيضاً بدار الإمارة، لاتخاذها دار إقامة ومقراً لأمراء المدينة من البيت العباسي الحاكم، وتقع على شاطئ نهر الخابور، يحيط به سور عال محكم، وقد اتخذت بعد زوال إمارة بهدينان، وعد زاخو قضاءاً تابعاً للواء الموصل، مقراً لقائمقام زاخو، وأصاب القلعة خراب كبير، والآن يشغل الجزء المتبقي منها بعض الدوائر الثقافية، بينما تسكن أجزاء أخرى بعض الأسر، وما زال جدارها المطل على النهر سليماً يدل على فخامتها وضخامتها أيام كانت عامرة.

ثم بعد أيام وإذا بجناب كتخدا علي آغا جاء وقعد يوماً ثم ركبنا وسرنا وطلع غالب أهل البلد لوداع علي آغا والحاج عبد الفتاح أيضاً خصوصاً لأجل أخيه الحاج إبراهيم وله أخ صغير اسمه الحاج عمر خرج حاجاً معنا، أعني الحاج إبراهيم، إلى أن سرنا مقدار ثلاث ساعات .

ووصلنا إلى نهر نازل من الجبال متغير اللون، كأنه الطين، فخفنا منه أن يكون سيلاً يزيد، فأسرعنا إلى أن قطعناه، ثم بنحو ساعة وصلنا إلى نهر آخر صافي يجري من جهة النهر الأول، ويمر إلى جهة القبلة فلما خضناه ربما بلغ ركاب الخيال فلما قطعناه وقفنا ودعونا وقرأنا الفاتحة وأنا راكب فرسي، فمشى إلى جهتي الحاج عبد الفتاح ليصافحني، فوضع في يدي بعض الدراهم، وقال: لا تؤاخذني، فشكرته ودعوت له وسلم علينا وفارقناهم وسرنا إلى وقت المغرب، [و] نزلنا عند بعض أرباب الغنم أهل الخيام في البرية، ثم لما أصبحنا فطرنا .

جزيرة ابن عمر

وركبنا وسرنا إلى بعيد العصر، وصلنا إلى مدينة جزيرة ابن عمر، [و] واليها جناب الأمير محمد بيك[155]، وهو بتاريخ هذه الحكاية في الحياة لطف الله به، قيل أنه متزوج بامرأة جنية في كهف من كهوف جبال تلك الأراضي، ويروح غالباً مع أصحابه وخدمه إلى قرب ذلك الكهف، ثم ينزل فيذهب وحده إلى داخل ذلك برهة من الزمان ويخرج ويركب وينزل إلى البلد . وحكي عنه أنه ما أحد يقدر يتكلم في حقه بسوء إلاّ يخبر المقابل بما قال، ثم يفعل فيه ما يشاء، بالقتل أو بالسركنه[156] أو بالعزل، ولأجل هذه اشتهر عند الناس في بلدهم أن امرأته الجنية تخبره.

155- هو محمد بك أمير قبائل البوتان، ووردت بعض أخباره في غرائب الأثر ص٤٧.

156- الفظة ماخوذة من الكردية(سورگون).

وتعني: النفي والابعاد.

وبجنب هذه البلد [الـ]ـنهر الذي مر ذكره أنه فرع من فروع دجلة، نهر بغداد، وعليه جسر، فلما وصلنا إلى عند الجسر جفلت فرسي ووقفت وما مشت إلى أن حرنا ساعة من الزمان، ونزلت عنها وإناس يسحبوها وإناس يسوقوها إلى أن توسلنا بالنبي صلى الله عليه وسلم والأولياء والصالحين، وقرأنا الفاتحة وما رأينا أنها قفزت وصارت فوق الباب الموضوع على الأخشاب، والجسور الكبار، ومشت إلى الجهة الثانية فقلنا الحمد لله رب العالمين.

ثم سرنا بجنب جدار البلد وسوره، وهو دار الحاكم، ودخلنا البلد، ورحنا إلى المسجد، وعلي آغا نزل عند الأمير محمد بيك، بتنا لليلتين هناك.

نصيبين

ثم سرنا قرية بعد قرية إلى أن وصلنا إلى بلد نصيبين .. وبتنا هناك ليلة وأصبحنا .

ماردين

وسرنا إلى أن دخلنا عشية ذلك أنهار مدينة ماردين، وهي مدينة على رأس جبل عظيم، وقلعتها على أعلا رأس الجبل، حيث ما فوقها إلاّ السماء، لكن ماؤها قليل، وغالب شرب أهل البلد من ماء المطر الذي يجمع في الأبيار[157]. وقعدنا ليالي وأياما آمنين بفضل رب العالمين في خان محكم البناء في أعلى البلد تحت القلعة. وعزمنا أحد علماء ذلك البلد إلى داره وأكرمنا وترحب بنا، واجتمعنا بأحد طلبة العلم كان بيني

157- أكد المؤلف هنا ما سبق أن نوه به البلدانيون العرب عن مناعة قلعة ماردين، مع قلة مصادر المياه فيها، قال القزويني" قلعة مشهورة على قنة جبل بالجزيرة، ليس على وجه الأرض أحسن منها ولا أحكم ولا أعظم، وهي مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين، وقدامها ربض عظيم فيه أسواق وفنادق ومدارس وربط.. وعندهم عيون قليلة، جل شربهم من الصهاريج المعدة في دورهم" آثار البلاد وأخبار العباد ص٢٥٩.

وبينه في الشام سابقاً صحبة عنده في مدرسة المرادية وهو الذي أخبره بي. ثم رجعنا إلى الخان .. فبعث ذلك الرجل يطلب مني كتاباً من العلوم الإلهية، فقلت له: ما عندي من ذلك، ولكن خذ له هذه القصيدة العينية للإمام القطب المحقق الشيخ عبد الكريم الجيلي[158]، ولها شرح المحقق الشيخ عبد الغني الشامي[159]، ورسالة أخرى معه- رضي الله عليهما- وسلم لي عليه واعتذر، وكان ذلك الشرح عندي أعز من كل شيء، وما خرجت عنه إلاّ حياءاً، فأخذه وراح. وفي اليوم الثاني أتى ذلك الصاحب به لي، وقال لي لما طالع فيه ما أراده، وقال: خذه فأعطه إياه. فلما عاد فرحت بذلك غاية الفرح، وعلمت أنه لاحظ له في علم القوم، وكاد رده لي كرامة من الإمامين العارفين الوليين الجيلي وعبد الغني- رضي الله عنهما- أن يكون كلامهما عند غير أهله، وشكرت الله سراً في نفسي.

ثم بعد أيام نزلنا إلى قرية من قراها قريبة منها ننتظر القافلة حتى نسير معها إلى مدينة رها[160]، لأن طريقها غير مأمون، إلى أن يسر الله تعالى بفضله القافلة، وكان أول هلال شهر رمضان.

158- هو الشيخ عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلي، ابن سبط الشيخ عبد القادر الجيلي أو الجيلاني، من كبار الصوفية في غصره، أقام في مكة، وفي زبيد، ثم سافر إلى الهند، فعاد منها إلى اليمن، ثم انتقل إلى القاهرة، حيث ألف أكثر مؤلفاته. وله مؤلفات مهمة في التصوف. توفي سنة ٨٣٢هـ/١٤٢٨م. ينظر بحثنا: عبد الكريم الجيلي، مجلة الأقلام ج٥ ، بغداد ١٩٧٠، ص١١٧-١٢٧.

159- هو عبد الغني النابلسي، وقد تقدم التعريف به.

160- الرها هي أوديسا القديمة، وقد عرفت في العصر العثماني بأورفة، مدينة إلى الشمال من الشمال من حلب بنحو ١٩٠كم.

قوج حصار

وبين ماردين ورها على طريق قوج حصار[161]، قوج بالفاء المثناة من فوق مضمومة وبعدها واو ساكنة وآخرها جيم الفارسي بثلاث نقط من تحت ساكنة. وهو بلد خراب الآن، وكان مدينة كبيرة ومن آثارها الآن ما يدل على ذلك من أساس البيوت، وبها الآن مأذنة عظيمة ومسجد بعضه عمار والباقي خراب، وحواليه بعض بيوت أربع فراسخ طوال أو خمسة مراحل، وسرنا متوكلين على الله تعالى ونحن خائفون إلى أن وصلنا إلى خان في فلاة من الأرض عشية يومنا، وأرضها وعرة حجارة كلها سود كأنها نزل عليها غضب العياذ بالله تعالى، وما بها الآن إلاّ ماء المطر في بعض المواضع المنخفضة.

تمر باشا

وسرنا نحو ثلاث ساعات من منزلنا ذلك، وإذا بخيل قد أقبلت نحو عشرين وأكثر فارساً، وأنا في ذلك الوقت مغطي رأسي بعباءة من المطر، وأقرأ الأسماء، فلما رفعت رأسي ورأيت الخيل قدامنا بنحو ساعة أتوا فوقفوا على الطريق، قلت الله أكبر وأعز وأجل مما نخاف ونحذر!، وقلبي بين الخوف والرجاء، ولكن الرجاء أغلب. وصرت أقرأ ما أحفظ من آيات الحفظ والأدعية إلى أن نظرت أول ركبنا وصل إليهم ووقف حصة من الزمان معهم وأنا بعيد منهم في آخر الركب وبعيني معهم ما رأيت، إلاّ أنهم مشوا وما كلموهم وأنا لما وصلت إليهم فسألت بعض الرفقاء ما هذه الناس؟ قال : هذه من جماعة تمر. [و] سألونا من أنتم؟ قلنا: نحن ركب الحج، ونحن سألناهم: من أنتم؟ وعلى أي شيئ دايرين؟ قالوا لنا: نحن دائرون على رجل قتل منا رجلاً وهرب، وأميرنا تمر[162] أمرنا أن نفتش عليه ونمسكه. قلنا : الحمد لله رب العالمين.

161- قوج حصار مدينة كانت تعد في العصر العثماني مركزا لقضاء باسمها من أقضية سنجق قونية في ولاية قونية نفسها، وتبعد عن مدينة قونية بنحو ١٤٠كم.

162- هو تيمور باشا، وتسميه المصادر المحلية تمر باشا، أمير قبيلة الملية الذي فرض هيمنته على مناطق ماردين وقره جه داغ والطرق المؤدية إلى ديار بكر وحلب والموصل منذ أوائل القرن الثالث

أرض خراب

ثم أيضاً عشية ذلك النهار وصلنا إلى أرض خراب ما بها أنس ولا ماء، ولكن من بعيد يلوح للناظر آثار العمار. وبتنا تلك الليلة في أشد خوف وبرد، ربما ما قفلت عيني إلاّ قليلاً من شدة البرد.

ولله الحمد أصبحنا سالمين فصلينا الصبح ومشينا يومنا ذلك إلى أن وصلنا إلى خان في وادي منحوتاً من حجر واحد، مفروشاً في ذلك الوادي، والداخل فيه ما يرى للخان علامة ولا أثر إلى أن يصل إلى بابه ونحن فوق ذلك الحجر. ورأيت الناس يختفون مني رجالاً ودواباً وأنا بالبعد منهم فصرت اتعجَّب من ذلك إلى أن وصلت، فلما رأيت باب الخان علمت أنه ليس خان ولكن كهف منحوت من الحجر ودهليزه عميق محفور في الأرض. وسميتُ باسم الله الحفيظ ودخلته وفرسي معي ورفقائي وكل الركب، فلما رأيته وتأملت سقفه [فإذا هو] قطعة واحدة عالي السقف مقدار ما تصل يد الإنسان إليه إذا مدها، ومع هذه الوسعة صرت أتعجب من الذي نحته بهذه الكيفية ، ما يعرف أحد متى نحت هذا فسبحان المحيط بكل شيء عنها(والله خلقكم وما تعملون) ولما دخلته والناس أيضاً والدواب رأيت الناس اشتغلوا بمسك طيور الحمام منهم أحد واحدة، ومنهم اثنان فأكثر، ومنهم ما صح له شيء. وكان دخولنا بعد المغرب وليس في هذه الوادي موضع تأوي الطيور إليه سواه، وخصوصاً [والـ] أرض مقطوعة عن العمارة. وحاصل الأمر أنا ما مسكت شيئاً من ذلك. وبتنا في خوف

عشر للهجرة (أواخر القرن ١٨م) وقد تولى والي بغداد سليمان باشا الكبير، وكانت ماردين تابعة لسلطته آنذاك، قيادة حملة كبيرة عليه، انضمت إليها قوات من حلب والرقة وملطية، فألحقت بقوات تيمور الهزيمة، وعلى الرغم من ذلك فإن تيمور استطاع كسب عطف السلطة العثمانية، فعينته فيما بعد والياً على أورفة سنة ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠م، ثم والياً على سيواس سنة ١٢١٨هـ/١٨٠٣م. ينظر محمد أمين زكي: خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ص٢٠- ٢٢١، وأحمد عثمان أبو بكر: أكراد الملي وإبراهيم باشا، بغداد ١٩٧٢، ص٢٠-٢١.

من قطاع الطريق في هذه المفازة وفي هذا الوادي البعيد من العمران إلى أن أصبحنا بحمد الله تعالى وفضله في أمان وعافية..

ومشينا إلى حد الظهر [فـ]وصلنا إلى أرض بها آبار بعضها فيه ماء وبعضها فارغ مهجور، [و] كان ذلك المكان سابقاً عَماراً، فشربنا وأكلنا ما تيسر وسقينا الدواب، ومشينا بالعجلة إلى أن وصلنا إلى عين ما يقرب قرية من قرى رها قبيل العصر، ومشينا على عجل ونحن في خوف من أهل ذلك المكان إلى أن مشينا نحو ساعتين فأكثر فوصلنا إلى قرية، وكان طريقنا بجنبها، فلما وصلنا ونحن سائرون إذا بفارسين لحقا كبير الركب فصار بينه وبينهما تشاجر وخصومة حتى كاد أن يصير بينهما قتل وضرب وأنا في ذلك الوقت قدام الركب وأتضرع إلى الله تعالى بإخلاص أن ينجينا بفضله من شرهما ومن كل سوء، وأن يوصلنا سالمين إلى رها وهي ظاهرة من بعد، وكنا نظن أن نصل إليها قبل الغياب وظني صار بخلاف ذلك فهي من البعد ترى قريبة وهذان الفارسان يدعيان أنهما من خيل الأمير تمر ويقولان ها هو مع الخيل ينتظرنا جوفانا به[163]، والأمر كذب في نفس الأمر، بل إنما مرادهما أن يخلصا منا شيئاً من الدراهم على صورة المَكس والباج، فلما أبينا وقفا موضعهما ورجع الذي كان خاصمهما في شجاعة غير خائف منهما حتى قال لهما: أين تمر حتى أروح إليه، هو ما يأخذ من الحجاج شيئاً، ولكن أنتما تكذبان ما تخافا من الله تعالى مرادكما أن تخلصا منا شيئاً بكذبكما، وهذا الرجل هو أخو الحاج عـ.. [164]الحاج ابراهيم حفظه الله وهو الآن في الحياة ، ومثل هذا رأيت منه شجاعة يوم الذي نريد الدخول إلى قرية ... من قرى حلب، ومنها إلى حلب يوم..[165]

وجدينا في السير إلى وقت العشاء الأخيرة إلى باب البلد فرأيناه قد أغلق وصرخوا إلى البواب فأجاب بأنه لا يمكن أن أفتح لأحد إلى الصبح.

163- كذا في الأصل، ويمكن أن تكون (جئنا به).

164- غير واضحة في الأصل.

165- كلمات غير واضحة.

وفي خارج سور البلد محلة كبيرة وفيها خان للدالاتية[166] ذهبنا إليه فلما وصلنا إليه بعد مضي حصة من الليل دقوا على البواب وجاء وفتح الباب فدخلناه ومشى قدامنا ودلنا على الخلاوي التي فيه الفارغة من العسكر، فنزل كل واحد منا في خلوة. والخان هذا واسع كبير جداً لو نزل ألف خيال فيه وسعهم. ورأينا فيه في جهة أخرى جماعة من الدالاتية، وفي جهتنا ما فيها أحد، وبيننا وبينهم مقدار بلوغ الصوت إذا صرخ الإنسان. وكان رفيقي الذي كان مع الراحلة التي عليها حوائجي متأخراً عنا ما لحقنا، فصرت أحوقل واسترجع وأقول: يا رب كيف يصير في كل هذا السفر ما أصابتنا مصيبة بفضل الله وهنا يصير ما يصير، ولا يمكن أن أرجع إليه، فصرت أدعو الله أن يهديه إلينا ويجيء سالماً ورفقائي الحاج يقولون لي: لا تخف يجيء! تسلية لخاطري، فلما آيست من الحِيل والأسباب سكتُّ وفوضت أمره وأمري إلى الله الحي القيوم. وبعد ذلك بزمان سمعت صوت حلقة الباب فراح البواب يقول له قبل أن يفتح الباب: من أنت؟ قال: أنا رفيق الحجاج الذين دخلوا هنا، ففتح، فإذا رفيقي والراحلة ففرحت بهما وسررت أكثر ما صار لي حزن بمراتب عديدة، فشكرت الله تعالى وجلسنا ثم علفنا على الدواب وعلى أنفسنا وصلينا المغرب والعشاء جمعاً وتأخيراً، واسترحنا، ولكن كان في قلبي وحشة خصوصاً الحجاج متهومين بالمال من الذين في الخان، ما كنت أقدر أنام طول ليلتي تلك وكان ظني ذلك لا من المكان إلى أن طلع النهار، وركبنا فدخلنا البلد من باب آخر غير الذي وقعنا عليه بالليل أنا

166- الدالاتية، وقد تكتب في مصادر العصر بصورة دلاة: ضرب من العسكر غير النظامي اتخذه الولاة في عهد ضعف القوات العثمانية المركزية، لفرض هيمنتهم وسلطتهم في ولاياتهم، وقيل أن أصل اللفظ من التركية بمعنى مجنون أو متهور، إشارة إلى جرأتهم واندفاعهم في الحروب. وذكر الجبرتي في تاريخه (ج١ ص٢٤١) أكثرهم من نواحي الشام وجبال الدروز والمتاولة، وقال" وهؤلاء الطائفة مشهورة في دولة العثمانيين بالشجاعة والإقدام في الحروب، ويوجد فيهم من هو على طريقة حميدة ومنهم دون ذلك". وكان هؤلاء الدالاتية موجودين في أكثر المدن في العراق وبلاد الشام ومصر.

ورفقائي . وذهبنا إلى الجامع الكبير، وأما جناب علي آغا وأصحابه فراحوا إلى الخان داخل سوق البلد، وأنا أرسلت فرسي وراحلة حوائجي إلى الخان وقعدت في إيوان الجامع.. ثم بعد يومين اجتمعنا بالعارف المحقق العلامة شيخ وقته إمام الناس المجهول[167] بالتدريس في العلوم الألية[168] عند العوام، المرحوم جناب الشيخ محمد نبي- قدس الله روحه- وعَزَمني[169] إلى ضيافة بعض مريديه، وكان رمضان، لأنا صمنا أول يوم منه ونحن في القرية التي تحت قلعة ماردين [التي] مر ذكرها، وحصل لي من بركة صحبته ونظره أشياء والله خير كثير. وأمرني في المكتوب بعض مريديه وأرسله إلي وأنا في الشام بشارة منه لي، رحمة الله عليه. وقال ذلك المريد الفاضل العالم العارف التقي الأخ العزيز جناب الشيخ يونس فسح الله في عمره وأجله، والآن بتاريخ هذه القصة في الشام ساكن في مدرسة المرحوم الوزير والي الشام في حياته جناب إسماعيل باشا بن العظم[170] بعد السلام والدعاء لك بشارة من شيخنا وهي أنه رأى لكم رؤيا وما ذكر ما هي. ثم أتى بعد مدة طويلة إلى الشام واجتمعت به، وذكرت له مكتوبه الذي أرسله لي وهو في رها، وقلت: ما الرؤيا التي ذكرتها إليَّ في مكتوبك الذي أرسلته لي وأنت في رها عن جناب الشيخ؟ قال: ليلة التي دخلت أنت إلى رها، في تلك الليلة جناب شيخنا رأى الإمام محيي الدين بن العربي- رضي الله عنه- في الرؤيا أنه أتى إلى رها، ودخل جامعها وتعجب من مجيئه، واستيقظ فأخبر بعض أصحابه بذلك وماله خبر بمجيئي، ثم أخبروه أن فلاناً – يعنيني- البارحة جاء من بلاد الأكراد ونزل هو ورفاقه في الجامع. قال رضي الله عنه تعالى بالخير لحسن ظنه بالناس من

167- كذا في الأصل.

168- كذا في الأصل، ولعلها: الإلهية.

169- عامية، يريد: دعاني.

170- تقدمت الإشارة إليه، وكان قد شيدها في سوق الخياطين بدمشق، وأضاف إليها ابنه أسعد باشا غرفاً فوقانية، وجامعاً وخطبة، ورتب للنازلين فيها جرايات. الحلاق: حوادث دمشق اليومية ص١٣٣.

صفاء قلبه لهم: لعل ما رأيته إشارة إلى أنه رجل مبارك، قلت: جزاه الله تعالى وإياك الخير عني، وأرجو الله أن يحقق ظنه فيَّ وفيك، وأن يبارك تعالى فينا. قال: وقلت آمين يا الله يا مجيب.

ثم بعد أيام ودعنا الشيخ وأصحابه وقرأنا الفاتحة ودعا وإياهم لنا، وخرجنا في آخر العشر من شهر رمضان سنة تسع وثمانين ومائة وألف[171] قاصدين حلب، وخرج لوداعنا جناب الأخ الفاضل المذكور الشيخ يونس إلى خارج البلد وصليت أنا وإياه والناس المغرب جماعة في ذلك المكان..

خان قديم

وسرنا بعد صلاة العشاء طول ليلتنا إلى أن طلع النهار، فصلينا الصبح في الطريق، ومشينا حتى وصلنا إلى المنزل الذي نريد أن نستقيم فيه ذلك اليوم بعد ساعتين من الشمس. وفي ذلك المنزل خان قديم كبير واسع في فلاة من الأرض، وما في حواليه أنس ولا عمارة، وعلى بابه مسجد مهجور بعضه خراب، وبعضه عامر، ومنارة صغيرة محكمة البناء بالحجارة، فدخلته وتأملت بناءه، ورأيت على حجارته ومنارته تاريخ عمارته واسم من عمره –رحمه الله- كان وزيراً من وزراء آل عثمان مر في زمانه بهذه الأرض فأمر بعمارة هذا الخان والمسجد -جزاه الله تعالى عن الناس خيراً وشكر سعيه- ثم بقينا يومنا ذلك إلى أن دخل الليل وصلينا المغرب والعشاء[172].

171- ويوافق ٣ تشرين الثاني ١٧٧٥م.

172- لم يذكر المؤلف اسم الموضع الذي نزل فيه، وكان الشيخ عبد الله السويدي، الذي مر في هذا الطريق سنة ١١٥٧هـ/١٧٤٤م، قد أشار إلى وجود مرحلتين بين الرها والبيرة، أولاهما سروج، والأخرى جيجلي، ولعل المؤلف يقصد هنا أولاهما فإنها كانت خربة قس أيامه.

البيرة

وتوكلنا على الله تعالى ومشينا إلى أن طلع الفجر، [و] وصلنا إلى شرقي الطريق، فتوضأنا من مائه، فصلينا الصبح، ومشينا على العجلة إلى بعد العصر بساعة، وإذا نحن بمدينة على شاطئ الفرات يقال لها بيرة ، فدخلناها مع المغرب ونزلنا في خان على باب الشط وبقينا ثلاثة أيام هناك، والباقي من رمضان أيام قلائل[173].

ثم ركبنا السفينة، وطلعنا إلى البر الثاني، ونزلنا في خان بعيد عن الشط بنحو ساعة، وعنده بعض البيوت، وبتنا تلك الليلة هناك وأصبحنا، ومشينا وخوف قطاع الطريق ما كان يفارقنا حتى وصلنا الى نهر نزلنا عند فأفطرنا وشربنا واسترحنا وصلينا الظهر. ثم سرنا إلى أن دخل الليل ولم نزل سائرين إلى أن اصبح الصباح ونحن بالبعد المنزل ،.. وصلينا الصبح بالعجلة وغالب الناس ما صلوا لغلبة الخوف. وما مشينا ساعتين بعد الشمس ولاح لنا المنزل من بعد، وإذا بالركب كلهم ضجوا وعيَّطوا وصرخوا وأنزَوا بعضهم إلى بعض، وأنا مالي خبر بالذي صار، فسقت الفرس إلى بعضهم وقلت لهم: ما الخبر؟ قال لي: أنظر! وأشار بيده إلى ناحية من الطريق، هذا الخبر، فلما نظرت الى الجهة التي أشار اليها رأيت خيولاً وفرساناً يعدون ويقفون في مكان عند بعضهم بالبعد منا. قلت لهم : من هؤلاء؟ قال: هذا قطاع الطريق يريدون أن يشلحونا. فصرت أنظر بعيني أليهم وأقرأ أسماء اهل بدر رضي الله عنهم وأتوسل بهم إلى الله تعالى أن يحفظنا ببركاتهم عنهم ويمنعهم عنا بفضله وأنا خائف ولكن لاحيلة لي سوى التسليم قهراً، فصرت أسوق الفرس حتى صرت قريباً من أول الركب وهو أكثر من مائة رجل بل من ثلاثمائة وقطاع الطريق أقل من عشرين.

ورأيت أن الحاج إبراهيم الزاخوي أخا الحاج عبد الفتاح المذكور نزل من دابة ومسك بارودة ومشى نحوه وأشار به إليهم وغير مثله، فلما رأوا ما طلعوا رجالنا

173- قال السويدي واصفاً البيرة" هي بليدة على كتف الفرات لها سور قديم، وعمارتها جيدة، ولا سيما التي تلي شاطئ الفرات". النفحة المسكية ص١٢١.

إليهم وقفوا على كثيب من الأرض قدامنا ونحن سائرون سير الخائفين مشياً وعدواً، والحمد لله الذي ألقى في قلوبهم الرعب، وما تحركوا من موضعهم مقدار ساعة بل أكثر، حتى صار بيني وبين البلد مقدار ساعة، فصرنا في أمان الله.

ثم وصلنا الى المنزل، ونزلنا وشكرنا ربنا وحمدناه، وعلفنا على الدواب، وأكلنا وبقينا الى قبيل المغرب، ثم ركبا ميلاً.

حلب

ولم نزل سائرين الى أن وصلنا مع الظهر الى مدينة حلب بأمان، فلله الحمد..

وقبل أن دخلنا البلد جاء إلينا رجل من الذين يأخذون الكُمرك والمَكْس فمسك دوابنا وعالجنا[174] أن أنزلوا هنا حتى أنظر أحمالكم وحوائجكم لأعرف الذي معكم. قلنا له: يا رجل خف من الله تعالى نحن حجاج وما معنا قماش ولا شيء للبيع. فما أمكن أن يخلينا نروح حتى ينزلنا ويفك أحمالنا وينظر الى حوائجنا واحد وراء واحد وقال لنا: أنا عبد مأمور أخاف من الذي قيدني في هذا. قلنا : إنا لله وإنا إليه راجعون! حسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فأنزل الناس أحمالهم وصار يفكها وينظر ويفتش، إلى أن وصل الدور إليَّ، وأنا بالبعد عنهم، فصرخ بي وقال: ما عندك يا شيخ ؟ قلت له: والله يا أخي ما معي شيء سوى بعض الكتب قال لي: أنا رائح أخذ لك شيئاً ما أمكن حتى طالع في كل شيء ثم خلَّصنا الله تعالى، والله يغفر لنا وله.

ودخلنا حلب مع جناب علي آغا في خان عامر ما رأيت مثله، ونحن واقفون جاء إلينا البواب، قال: يا شيخ ما في خلوة ولا موضع خال؟ لما رأى أثار الفقر والحمد لله. قلنا له: دعنا في أرضية الخان هذه الليلة فقط، وغداً نروح إلى غير موضع، فما كان يرضى، وقد دخل وقت المغرب وخرجنا محزونين حائرين وخصوصاً بسب فرسي وراحلتي. ومشينا وما ندري إلى أين نذهب إلى أن دخلنا إلى خان أخر بعد جهد، فلما رآنا

174- كذا في الأصل، ولعلها: وقال لنا.

البواب قال: ما في عندنا حجر، أطلعوا شوفوا لكم مطرح! قلت: يا ربنا أنت إلهنا وربنا يسر بفضلك لنا مأوى، وطلعنا.

وخطر ببالي جناب السيد محمد الرحباوي -حفظه الله تعالى- الذي سابقاً في مجيئي إلى حلب اجتمعت به فقلت لأرفاقي : قفوا هنا حتى أتيكم وصرت أمشي مهرولاً وأنا أقول : يا الله يا غياث! أدركني بلطفك، حتى جأت الى مدرسة الحلوية التي نزلت بها سابقاً، ونظرت الى خلوة جناب السيد المذكور فرأيته وسلمت عليه ورد علي السلام وقال: أهلاً وسهلاً يا مرحبا بك! قلت: يا سيدي جزاك الله عني خيراً، أنا اليوم دخلت هذا البلد مع الحجاج الأكراد وكلهم نزلوا الخان الفلاني وأنا معي فرس وراحلة ورفقاً، ما رضي البواب ينزلنا، ثم جئنا إلى خان آخر أشرت له إليه[175] كذلك، ولكن] البواب قلعنا[176] [و] ما رضي ينزلنا أرجو من جنابك أن ترى لنا من لطفك موضعاً ولوا كنت أنا وحدي ما كنت أبالي أجلس في الجامع وصار الليل وما أدري أين أذهب وكيف أعمل فألهمني الباري جنابك، وها أنا جئت إلى جنابك، وتركت فرسي، ورفقائي نزلوا معي إلى السوق الذي على باب المدرسة فصرت أعدو وأدعو له إلى أن وصلت إلى الرفقاء، قلت لهم: امشوا! الحمد لله صار الفرج. [و] جئنا رئيسنا السيد محمد -مع كماله زاده الله تعالى كمالاً- واقف في انتظارنا فسلمت عليه فرد السلام ومشى قدامنا إلى أن دخلنا في خان بقرب ذلك السوق، ودعا بالبواب وقال له: مرادي منك أن تعطي حجرة لهذا، وأشار إليَّ وإلى رفقائي وأنا أعرفهم وضمانهم علي كأنه .... منه وألا .... راح[177] وغاب حصة ثم أتى، وقال له: هذه الحجرة، أشار به إليها خالياً أن كان يرضوا فيها وإلا ما عندي غيرها، والحجرة غير صالحة وما لها مفتاح، وأظن كان مراده [أن] لا ننزل، ونحن نرضى بأرض الخان.

175- كذا في الأصل.

176- قلعنا لفظة عامية، بمعنى: طردنا.

177- كلمات غير واضحة في الأصل.

وذهب جناب السيد فنظر إليها وقال لي كيف تقول يا أخي ؟ قلت له مليح رضينا والحمد لله ... فصلينا المغرب، وعلفنا على الدواب[178]، وأكلنا لقمة فشكرنا الله تعالى، وبتنا ليلة غير صالحة، ثم ما [أن] طلع النهار وصلينا الصبح [حتى] جئت الى السيد -حفظه الله تعالى- وشكرته وأخبرته ... خير جزاك الله عنا خيراً! فدعا لي وقال: الحمد لله! ثم قعدنا مدة أيام، فصار العيد، وكان عيدهم عجباً لأنهم رأوا الهلال نهاراً في المشرق، وفي عشية ذلك اليوم رأوه في المغرب، فأصبحوا مفطرين .. وفي ثاني يوم العيد رحت إلى الخان الذي فيه علي آغا رفيقنا المذكور، فعايدتهم، وسألته عن السفر [فـ]قال : غداً! وأصبحنا ثاني يوم العيد، [و] جئت إلى جناب الحسيب الفاضل سيدنا السيد محمد الرحباوي الحلبي فسلمت عليه ..

خان تومان

ومشينا إلى خان تومان، ومنه الى حلب ثلاث ساعات، وبقربه قرية صغيرة[179] وأهلها يبيعون الخبز والبيض والطعام على المسافرين النازلين في الخان .. وعلى ذلك النهر طاحون عظيم، وبتنا تلك الليلة هناك، وثاني يوم اجتمع الحجاج كلهم، وفي ثاني ليلة بعد العشاء الأخيرة مشينا طول ذلك الليل إلى أن طلع الفجر، فنزلنا بجنب الطريق، وصلينا الصبح، وأكلنا ما تيسر.

سرمين

ثم ركبنا وصرنا والمنزل يسري[180] لنا من بعد وهو قرية سرمين الى أن وصلنا أليها ونزلنا ولها جامع كبير وفيه بأر ولها سوق نحو مائتي دكان وسرمين هذه سابقاً كانت بلداً

178- يريد: علفنا الدواب.

179- وصف عبد الله السويدي هذا الخان وقريته بأنه خان محكم رفيع.. حوله ضيعة عامرة، وهو على كتف نهر حلب المسمى قويق. النفحة المسكية ص٢١١.

180- كذا في الأصل، يريد: يبدو أو يظهر.

عامراً، ويشتمل على معاصر ومصابن ومشايخ وصلحاء وحدائق زيتون ما لا يُحد خيرات، والآن ما بقي من ذلك إلا شيئ قليل، من فساد الزمان وكثرة الظلم وقلة العدل من الحكام، لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم[181].

بتنا هناك حصة من الليل، ثم سافرنا قاصدين معرة النعمان، والطريق مخوفة من العرب الموالي[182] وغيرهم، وركبنا فوق ثلاثة آلاف نفس، وفي صحبتنا جناب السيد الحسيب جلبـي أفندي نقيب السادة الأشراف بحلب[183] وعليه مدار نظام مدينة حلب على الإطلاق، ولأجله كان معنا عسكر الدلاتية وغيرهم نحو خمسمائة خيال فأكثر، ومع هذا خائفين ولم يزل الخوف في قلوبنا إلى قرب الدار، وفي الطريق يميناً وشمالاً آثار أبنية العمائر القديمة، وخان عامر كالقلعة على الطريق وفيه الناس.

ورأيت قوساً من الحجارة المنحوتة مجردة عن البناء والجدران، بجانبيه قوس عال عظيم وحده في هذه الفلاة من الأرض. وليس هناك عمارة ولا بيت وأنا راكب أنظر إليه وهو على يسار الطريق الآتي من حلب. وترى فوق جبال تلك الأرض أبنية كأمثال بناء قلعة الشام بل أحكم منها.. وما فيها أنس بل [هي] مأوى الجن والوحوش.

ولم نزل نمشي إلى أن وصلنا إلى قطعة حجر على جنب الطريق مقدار أربعة أذرع أو أكثر طولاً وذراعين عرضاً ونصف ذراع بل أزيد سمكاً، وعليه بعض آثار كتابة قديمة منحوتة عليه، فسألت بعض الناس عنه لأن رؤيته تخبر الرائي أنه لا يخلو من أمر لامتيازه عن حجارة تلك الأرض جميعها، فقال لي: هذا الحجر أخبرونا أن تحته كان دفينة أخرجوها أرباب العزائم والبخاخير[184] من المغاربة وغيرهم.

181- كان السويدي قد مر بسرمين قبل هذا التاريخ بنحو ربع قرن، فذكر أنها قرية كبيرة غير مسورة يحيط بجوانبها أشجار الزيتون، وهو كثير في الغاية، وفيها يعمل الصابون، وفيها جامعان". النفحة المسكية ص٢١٠.

182- الموالي قبيلة من طي كانت تنزل نواحي الجزيرة الفراتية.

183- تقدمت الإشارة إليه.

184- يريد: البخورات.

ثم وصلنا قبل المغرب باب البلد فرأيت الشحاذين واقفين على الطريق ما لا يعد بالحساب، وأن واحد من رفقائي يسحب فرسي وبيده رأسها من خوفي أن تجفل علي غفلة وترميني. وسمعت امرأة من الشحاذين قالت تخاطبني: حاج آغا، بر احسان، الله سلامت. بر واحد، معناه اعطني شيئاً لله الله يسلمك. قلت لها: الله يبعث. وبعدت منها شوية فسمعتها قالت: الله لا يحرم البعيد باب الصغير! وهي تظن أني من أبناء الترك لا أفهم بالعربي. فلما سمعت قولها باب الصغير علمت أنها من شحاذين الشام لأنه ليس في بلد مما رأيت موضع يقال له باب الصغير ما عدا تربة الشام الكبير، يقال لها باب الصغير، فعلمت أنها دعت عليَّ بالموت. فالتفت إليها وقلت: وأنت الله لا يحرمك مرج الدحداح، فضربت بيدها على صدرها وعضت اصبعها، وقالت: يوه يعرف بالعربي! فضحكت وضحكت.

ونزلت عن فرسي وأعطيتها إلى أحد الرفقاء، وقلت له : خذها اسقها وتعال، وكان هناك بئر ما رأيت ازدحام الناس عليه، وأنا سابقاً أعرف أن معرة ماءها قليل، فراح وأخذ الفرس وأنا وباقي الأرفاق جئنا ودخلنا الخان الذي على يسار الداخل من جهة القبلة وقدامه أيضاً خان مثله، وهذان الخانان في غاية الإتقان والبناء[185]، وهي على طرف البلد..

قطيفة

ثم بتنا إلى ثلثي الليل، وسافرنا وطلع علينا النهار، وقبل وصولنا الدار وهو خان شيخون صلينا الصبح في الطريق، ونحن في غاية الخوف من العرب الموالي لأن هذه أرضهم دائماً إلى قرية قطيفة[186] الذي منها إلى الشام، والحمد لله ما رأينا أحداً.

185- أشاد السويدي بعمارة معرة النعمان، وباتقان بناء خاناتها، فقال" بلدة غير مسورة، فيها أسواق وحمام وجامع كبير في أحسن ما يكون من العمارة، وله منارة رفيعة عجيبة حسنة البناء، مربعة، ويتصل بالبلد خان من أحسن الخانات، رفيع البناء محكمه، سطوحه مغشية بصفائح الرصاص، وله طاقات ورواقات، جميع دوره لأبناء السبيل، وله باب رفيعة ملبسة بالحديد". النفحة المسكية ص ٢١١.

186- سيصفها المؤلف فيما يلي من رحلته باسم (خان قطيف).

خان شيخون

ووصلت خان شيخون فحسبت أنهم ينزلون هناك، فنزلت عن فرسي وراحلتي.. بحملها، ووجدت نساء من أهل القرية[187] يبيعون البطيخ الأخضر، كل واحدة مقدار خمسة أرطال تقريباً بل أزيد من ذلك، فاشتريت ما قدَّر الله وجلسنا نأكل، وإذا بالناس رائحين ما بقي إلاّ قليل منهم، فعجّلنا بالأكل، وركبنا ومشينا إلى أن وصلنا بعد الظهر إلى نهر العاصي تحت حما بثلاث ساعات تقريبا، فتفرقت الناس هناك لضيق الأرض المناسبة للخيام والدواب، وبتنا هناك في خوف.

حما

ثم لما طلع النهار صلينا الصبح، ومشينا والخيل مترفقين على تلال كائنة هناك على طرف الطريق خوفاً من العرب، إلى أن دخلنا قبل الظهر إلى حما، ونزلنا بظاهرها على طريق الخارج إلى الشام. وفي تلك الليلة بعد المغرب غيمت السماء ونزل المطر قليلاً ونحن ما لنا خيمة ولا مأوى نأوي إليه، فصرنا ندعو الله تعالى أن يمسك عنا المطر بفضله.

ثم ونحن في ذلك الحال التفتُّ فرأيت بعض الناس مثلنا، ما لهم خيمة راجلين، فقمنا لحقناهم. ورأيت قريباً من موضعهم حفرة عظيمة وفي مكان مسقوف من موضعهم حفرة عظيمة وفي مكان مسقوف من.. كالقبو، فدخلناه وتوكلنا على ماسك السموات والأرض بقدرته، لكن الخوف غالب على وهمنا من وقوع هذه الأرض علينا، فصرنا نقول: اللهم أخرجنا سالمين! وهكذا إلى أن مضى من الليل أكثره، وإذا نحن بصوت الناس: الرحيل! فقلت: الحمد لله! وخرجنا سالمين.

ومشينا إلى أن طلع الفجر ونحن في ربع الطريق، لأن منزل حما وحمص ربما أكثر من اثنتي عشر ساعة. ونزلنا وصلينا الصبح بالتيمم، وبين الموضع الذي صلينا فيه والماء نحو ساعتين.

187- ذكر السويدي أن حول خان شيخون " قرية صغيرة" فهي التي يشير إليها المؤلف.

نهر العاصي أيضاً

ثم ركبت ومشينا إلى أن وصلنا إلى نهر العاصي أيضاً، وعليه قنطرة عظيمة ذات أقواس عديدة، وعندها طاحون محكم البناء، رحم الله تعالى بانيها من المسلمين خيراً على مرور الزمان وكل أهل خير آمين. ثم مررنا عليها إلى الجهة الثانية ورأينا نساءاً ورجالاً وأولاداً من القرية التي فوق جبل ذلك النهر معهم خبز وبيض مسلوق وطعام مطبوخ وغير ذلك مما يؤكل قاعدين ينتظرون الحجاج حتى يبيعوا عليهم ما معهم، فهذا دأبهم دائماً. واشترينا من كل شيء، ومشينا ونحن نأكل لأن الناس ما قعدوا ولا شربوا إلاّ الراكبين الخيل والكديش لأجل شراء الأكل فقط.

وفي هذه القرية قبة يقال فيها قبر أبا يزيد البسطامي طيفور بن عيسى[188] رضي الله تعالى عنه وعنا به، وما أمكننا أن نروح إلى القبة لأنها على رأس الجبل ونحن في الوادي والناس سائرون، ولا تخلو الأرض من الخوف. وهنالك وقفنا بمحاذاة القبة، وقرأنا الفاتحة ودعينا، وسرنا.

وأيضاً جناب هذا الشيخ، أعني أبا يزيد، له مقام في دمشق بظاهر البلد غربي قلعتها، والناس يتبركون به، وأيضاً له مقام على شمالي قِبلة الشام في فلاة من الأرض على تل عال بين القرية المسماة بقرحتة[189]، وبين السيدة زينب من نسل أولاد الإمام علي رضي الله تعالى عنه وعنها، وعلى قبره مسجد، وقبره طويل، وأهل الشام والقرايا دائماً يقصدونه للزيارة، وينذرون النذور له ويذبحون عنده الذبائح، ويطبخون الطعام هناك، ويذكرون الله تعالى جماعة. ويروون من كراماته- رضي الله تعالى عنه- شيئا كثيراً، حتى [أن]العرب قطاع الطريق لا يقدرون أن يشلحون أحداً حول ذلك التل. وقد ظهرت لهم من كراماته،ولذلك [فإن] الناس يعتقدون أن هذا مقامه بلا شك – رضي الله عنه- والصحيح في ترجمته أنه مات في بلده

188- من أعلام الصوفية، نسب إليه القول بوحدة الوجود، ولد في بسطام سنة ١٨٨هـ/٨٠٤م، وتوفي فيها أيضاً سنة ٢٦١هـ/٨٧٥م. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج١ ص٢٤٠ والشعراني: الطبقات الكبرى ج١ ص٦٥.

189- في ياقوت (معجم البلدان ج٤ ص٣٢٠) قرحتاء، وقال" من قرى دمشق".

بسطام. وعلى قبره هناك مسجد ومنارة، إذا قال أحد من الزوار وغيره، سواء كان فوق المنارة او تحتها: يا منارة بحق أبا يزيد عليك إلاّ أن تحركتِ، ما ترى حالاً تروح يمينا وشمالا بالميل من غير أن يقع منها شيء. هكذا أخبرني رجل من أهل تلك البلاد. وبسطام هذه قرية من قرى همذان، مدينة كبيرة من مدائن العجم بينها وبين بغداد خمسة عشر مرحلة. ومثل هذه منارة الإمام الجليل سيدنا الحسين بن الإمام علي - رضي الله عنهما - بأرض كوفة القريبة من بغداد بنحو ثلاثة أيام، وهي الأرض التي استشهد فيها. إذ قال لها واحد: بحق الإمام الحسين عليك اهتزي، تروح يميناً وشمالاً، أخبرني من شاهد ذلك بذلك.

وفي القرية التي مر ذكرها قريبا، أعني قرحته، قبر الشيخ العارف والولي الشيخ عقيل المَنبِجي[190] - رضي الله تعالى عنه- خارج القرية في داخل بناء مسقوف، وعلى قبره هيبة ووقار، والناس يقصدون زيارة قبره على الدوام، والحمد لله زرته مراراً.

حمص

ثم [لم] نَزل سائرين يومنا ذلك إلي أن قريب المغرب حتى دخلنا حمص، ونزلنا في خان خارج البلد، ثم خرجنا ونزلنا بجنب تربة البلد، ونحن في قلق وحزن لعدم المأوى، ولا نقدر أن نغفل عن حوائجنا لحظة من كثرة الناس من أهل حمص أن يسرقوا شيئاً.

ثم لما طلع النهار صلينا الصبح ومشينا، وفي هذا المنزل والذي بعده، خوف قطاع الطريق على القوافل دائماً أكثر من كل الطريق من شام الى حلب.

خان شمسين

وفي نصف الطريق، أو اكثر منه، وصلنا إلى الخان، وهو قلعة شمسين، بفتح الشين وبعدها ميم ساكنة فسين مكسورة بعدها، فياء ساكنة بعدها، فنون آخرها، عظيمة

190- شيخ شيوخ الشام في وقته، على ما وصفه الشعراني، له كرامات ظاهرة، وتتلمذ عليه كثيرون، منهم الشيخ عدي بن مسافر الأموي، سكن منبج نيفاً وأربعين سنة، وبها مات، وقبره ظاهر يزار. الطبقات الكبرى ج١ ص١١٧.

محكمة البناء[191]، وفيها أناس دائما بأهلهم وأولادهم كناية عن قرية صغيرة يبيعون على الحجاج وغيرهم دائما ما يؤكل ويعلف على الدواب، وهم وقلعتهم آمن وآنس للقوافل في هذه الموضع من الطريق – جزى الله بانيها خيرا عن جميع الناس طول الدهر أمين- ولهم علايف[192] من قبل السلطان.

عيشة

ولم نزل سائرين حتى وصلنا المنزل المسمى عيشة، وهو منزل مبارك عامر بسبب سكانه، وبناؤه كالقلعة نصفه للمسافرين ونصفه لأهلها وكبيرهم. وفي نصف المسافرين مسجد صغير وله منارة صغيرة، وبجنب جدار المسجد حوض ماء عذب واسع، وأخبرونا أن الماء هذا من بعيد نبعه ساقه إلي هذا المكان المرحوم جناب سليمان آغا هو للناس الساكنين في هذا الخان، وهو عمَّر المسجد الذي فيه وحوض الماء، وله قصر فوق باب الخان، وله مخادع وشبابيك تطل على الطريق إلى جهة الشام. وكان جناب الآغا المذكور يجلس هو وأتباعه في ذلك القصر، وينزلون عنده أكابر الحجاج وأشراف الناس، وله كرم زائد طعاماً وخبزاً وإعطاء الدراهم على نية التيسير. وصيته في زمانه كالشمس في الظهيرة بقطر الشام وحلب، حتى في اسلامبول تحت سلطاننا، بسب الحجاج، ويركب معه مائتا خيال بل ثلاثمائة فأكثر كلهم فلان بن فلان من شجعان الناس، ودائماً طعامه حاضر وقهوته مطبوخة.. ومشربه على الطريق ولا طريق سواه رواحاً ومجيئاً، وهو يغفرون[193] الحجاج من حد حمص إلى نبك[194]. وفي أيامه الأمن

191- ضبطها السويدي بوزن نسرين، وقال أنها" قلعة صغيرة". النفحة المسكية ص٢١١.

192- علايف جمع علوفة، وهي المعاشات . الحلاق: حوادث دشق اليومية ص١٠٤.

193- يغفرون: يخفرون.

194- قال السويدي واصفا هذه الرحلة من مراحل الطريق" النبك هي قرية كبيرة شربها من عين أعذب من الأولى وحواليها بساتين كثيرة، وبظاهرها خان كبير لأبناء السبيل، وفي داخله خانان للشتاء، وفيه جامع خطبة". ٩١.لنفحة المسكية ص٢٢

والأمان على قدر ما يضيق الوصف، رحمة الله تعالى عليه وجعل الجنة مأواه مع والديه وجميع أمواته وبارك في ذريته إلى بقاء الإسلام بأبيهم أمين.

ومن جملة الناس الداعي له الفقير، فأني نزلت في خانه وأتيته إلى قصره مع رفيقان، فشربنا القهوة عنده، وأكرمنا بما كان قدرنا عنده، أكرمه الله بالمغفرة والعفو، وكان ذلك سنة ثلاثة وستين ومائة وألف، وأما يومنا هذا - أعني بتاريخ ثلاثة أعوام بعد مائتين وألف- كأن فيه قول من قال:

تغيرت البلاد ومن عليها	وجه الأرض مغبر قبيح
قتل قابيل هابيل أخاه	فوا أسفا على وجه مليح

فصار مسكن الأسود مأوى الثعالب، والأمن بُدِّل بالخوف، والعمار بالخراب، فسبحان الرب المنزه عن التغير والزوال، والحمد لله على بقاء هذه الخان والمسجد وما فيه حسب الوقت والزمان. وبتنا خارج الخان قريباً منه حصة من الليل.

حَسَه والبريج

وحملنا ومشينا إلى أن طلع النهار، فصليتُ الصبح بالتيمم على الطريق. وركبتُ ومشيت والمنزل الذي رحلنا من غاب عن نظر الرائي المتلفت إليه من موضعنا، ذلك لاستعلاء الأرض وعلو جهتها على ما تركناه. ووصل أول الركب إلى أول تل هناك، على شمالي الطريق ويمينه، ورأيت الخيل والخيول والعسكر كلهم تفرقوا على التلول يميناً وشمالاً وقدام ووراء. وصاحب البارود ماشي ماسك بارودة ويقوسه[195] عشرة مع وعشرين سوا، وهكذا مقدار نصف ساعة وأنا أقرأ التحفظات وأسماء أهل بدر سادتنا البدريين -رضي

195- قوس في الأصل رمي النبل بالقوس، ثم صارت اصطلاحاً يراد به: رمي برصاص البنادق، ومنا سمي حامل هذا النوع من السلاح قواساً.

الله عنهم أجمعين- إلى أن وصلنا إلى خان قلعة بُرَيج، تصغير بـرج[196]. وفي هـذين الخـانين حسه[197] وبريج أمن، لأن بوجودهما في زمانهما كما يكون الأنس والأمان بنور الشمس في قلوب الناس، وتذهب وحشة ظلمـة الليـل، كـذلك أمـان هـذا الطريـق – أعـني الطريـق الشامي والحلبي- لكن بخصوص هذين المنـزلين لأن في الأول موضـع عيـون العلـق، أعـني المنزل الذي يروح من الشام إلى حلب أو حمص أو حما مـن قريـة نبـك إلى قريـة قـاره[198]، ومنها إلى حسه. وهذه العيون التي يقال لها عيون العلق موضع قريب من قاره.

ومن خان بريج ما يخلو من ربط الحرامية وخيل العرب، وبسبب رئيس هذا الخان ما أحد من الناس يخاف من العرب أن كان رائح إلى الشام أو جاي إلى الشام.

تل شيشا

وبين حسه وحمص قريب القلعة التي في الطريق بين موضع يقال له تل شيشا، مثل عيون العلق، بين تلال من كل جهة، ما يرى الماشي إلاّ وصل إليه الحرامـي. وأمـا تـل شيشا فبرية مد النظر يرى الماشي في الطريق من بعيد إن كان أحد الخيّال أو خيّـال مـا بين يتهيأ للحرب أو الهرب أو الخلاص أو غير ذلك من الأسباب خـلاف الأول مـا يـرى إلاّ جنبه، أعاذنا الله من شر الجن والأنس في الدارين بفضله أمين ...

196- ذكر السويدي أن بريج " قلعة صغيرة". النفحة المسكية ص٢٣٠

197- كذا كتبها المؤلف، والمشهور حسية. قال محمد كبريت المدني " هي واد فيه قلعة ومياه غزيـرة". رحلة الشتاء والصيف ص٢١٠. وقال السويدي" هي قرية صغيرة لهـا خـان كـبير لأبنـاء الـسبيل، فيـه جامع يخطب فيه، وفيه بركة ماء كثيرة، وخارج القرية بركة أكثر من عشر في عشر، وشرب أهل القريـة من عين عذبة صافية. وحول القرية بساتين من سائر الأشجار، والمسافة تسعة فراسخ".

198- قارة قرية قديمة وصفها ابن جبير وذكر أن " بها خان كبير كأنه الحصن المشيد (رحلـة ص٢١٠) وقد أصاب القرية خراب كبير حتى وصفها محمد كبريت المدني بأنها" قرية أشرفت على الـدمار" (رحلـة الشتاء والصيف ص٢١٠) ووصفها السويدي بأنها " قرية فيها جامع خطبة".

وعلى.. تلال هذا المنزل أعني منزل حسه، إلى نبك مناطر[199] دائماً فيها ناس بعلايف حتى اليوم، أعني سنة ثلاثة بعد المائتين والألف، وأجر كل منهم عشرة مصاري[200]، كل يوم ينطرون بالنهار إلى وقت المغرب، إلى نواحي تلك البلاد والتلال والوديان مقدار نظر الناظر من كل جهة، فإذا رأوا الخيل واحداً من بُعد، يقوسون[201] فيسمعون صوت قواس في القرية فيركبون ويقصدون الخيل، هذا علامة بينهم دائماً كما أخبرني من أثق بكلامه ..

فلما وصلنا إلى باب الخان، رأيت الماء يخرج من داخل القلعة إلى الخارج في ميزاب من حجر وينزل الى حوض تحته، ورجال ونسوان من أهل القلعة هناك يبيعون ما عندهم من خبز ولبناً وبيضاً وغير ذلك. اشترينا ما تيسر وأكلنا بعجلة ومشينا... إلى أن فُتنا عيون العلق بسلامة وما رأينا أحدا.

قارة

وبلغنا قرية قارة[202]، وفيها خانان، الواحد خراب باقي منه بعض الجدران، والواحد ملصق بالقرية، وهذه القرية عامرة قبل هذا التاريخ جئنا إليها سنة تسعة وخمسين ومائة وألف، أو ثمان وخمسين[203]، رأينا كأن وقع فيها الطاعون، ونحن في أخره جئنا ومالنا خبر بذلك، وهم أخبرونا، وكان فيهم من مصابين بعد، وقليل من الناس في

199- يريد: مخافر.

200- جمع مصرية، وهي نقد من نحاس كل عشر منها كانت تساوي قرشاً صاغاً، كما ضربت من الفضة، واختلف سعرها باختلاف المكان والزمان. أنستاس ماري الكرملي: النقود العربية وعلم النميات، القاهرة ١٩٣٩، ص١٨٥.

201- قوس في الأصل رمي النبل بالقوس، ثم صارت اصطلاحاً يراد به: رمي برصاص البنادق، ومنها سمي حامل هذا النوع من السلاح قواساً.

202- انظر عنها ما تقدم.

203- وتوافق ١٧٤٥

القرية منهم هربوا ومنهم ماتوا ومنهم مريض مصاب، نحن ندور في القريـة ولا يخطـر ببالنا خاطر. بقينا يومان هناك.

وعلى أعلى القرية خارجها مسجد صغير على عين ماء معين زلال صافٍ يدير حجر الطاحون. قعدنا هناك حصة فتوضأنا وصلينا ما تيسر، وشربنا منه، وعدنا إلى الجامع، وكان من يرانا منهم يتعجب منا ويطلب منا الدعاء، ويعزمنا إلى بيته ان كان عنده أحد مريض يقول لنا: ادعوا له بالشفاء، وإلاّ يقول بعد الأكل: حليتموا[204] البركة علينا، ويقبل أيدينا ويكرمنا بزبيب وما عنده فوق الأكل، ويقول: روحوا بارك الله فيكم لا تنسونا من صالح دعائكم، وكانوا في غاية الرقة من خوفهم الموت.. وأما بتاريخ هذه السنة، وهي سنة ثلاث ومائتين بعد الألف، وهم غاروا في الزلزلة التي صارت في حدود سبعين ومائة وألف، ما بقي منهم شيء، وكرومهم يبست وأشجارهم كذلك. وأهل القرية صاروا فقراء لأن كل رزقهم في الماء والكرم، وغالب أهل رحلوا وما بقي الآن منهم الاّ قليل من الناس. ثم ودعناهم.

نبك

وسافرنا الى أن دخلنا قرية نبك، وهي على تل مرتفع من الطريق، وبجانبها خان عظيم واسع محكم البناء، وفيه مسجد صغير وله منارة صغيرة. ويجري تحت ذلك الخان نهر ماء معين صافي كالزلال بارد حلو يُدَوِّر حجر الطاحون، نبعه من جهة قرية بيرود، وهي نحو ساعتين منها.

ولما نزلنا في الخان عِشاءً رحنا إلى القرية لأجل زيارة الأخ في الطريق جانب المرحوم الآن العالم العارف الفاضل الحسيب النسيب السيد على النبكي أبا محي الدين، واجتمعنا به في داره. وجاء إلى زيارته الفاضل المكرم نقيب الأشراف في حلب جناب المرحوم جلبي أفندي ومعه أناس، فأكرمنا وأضافنا وترحَّب بنا، فجلسنا عنده زمانا، ثم لما ودعناه ودعا لنا، وأرسل أبنه محيي الدين معي وحَمَّله خبزاً وزبيباً إلى أن

204- يريد: أحللتم البركة فينا.

وصَلّنا إلى الخان. وكان باب الخان مُسَكّرًا فصرخ بالبواب، ففتح وأعطانا ما معه، وقبّل يدي وطلب الدعاء، فدعينا[205] له، وقلنا له: قبِّل يد الوالد عني، واطلب لي منه الدعاء يجعلك من عباده الصاحين ويبارك الله فيك وفي عمر الوالد، فسلم علينا وراح،أعني محيي الدين، بتاريخ هذه الترجمة في الحياة، بارك الله في عمره وجعله خليفة والده آمين.

ثم أقمنا في حجرة من حجر الخان إلى أن طلع الفجر، فنزلنا على النار، وتوضئنا وصلينا الصبح، وركبنا ومشينا وفي قلوبنا بعض خوف من هذه المنزلة، إلى خان قطيف[206] فالحمد لله تعالى .

خان قطيف

وصلنا إليه بأمان، وما رأينا مكروها، ونزلنا في خان كناية عن قلعة واسعة به برّاني وجوّاني، وفيه مسجد وحوض ماء، وفي دهليز الخان دكاكين يبيعون الشعير والخبز واللبن والبيض والدبس وغير ذلك على المسافرين جزاهم الله خيرا عنا وعن المسافرين على طول الزمان، وأنا جالس فوق صُفّة في ليوان[207] الخان، وجاء رجل إلى عندي من أهل تلك القرية، فقال لي: تبيع هذه الفرس؟ قلت له: لا،قال: أعطيك كذا وكذا حتى ترضى . قلت: يا سيدي كيف أبيعها وأنا مسافر واحتاج إلى دابة. فلما أيس قال لي : حيث ما تبيعها لا تركبها من هناك لأنها مجروح ظهرها، وبقي الشام قريبة، فاسمع مني هذه النصيحة لا تركبها ولو أنك من هنا إلي الشام! . فصرت

205- يريد: فدعونا.

206- كذا كتبه المؤلف، والمشهور قطيفة، خان قديم عمره الوزير سنان باشا في القرن العاشر للهجرة (١٦م)، ووصفه محمد كبريت المدني بأنه" لا يرى له عديل" (رحلة ص٢١٠). وقال الخياري" خان متسع الأكناف" (تحفة الأدباء ج١ ص١٧٧) ووصفه السويدي بقوله" هو كبير واسع وفي باطنه خان آخر فيه بركة ماء أكثر من عشر في عشر، وفيه أيضاً خان للشتاء.. وفي الخان جامع كبير يخطب فيه، وله وللجوامع الأخرى منارات.. وفي هذا الخان قلعة صغيرة وخانقاه يصنع فيها طعام للمسافرين".

207- تقدم شرحها.

أقول له نعم، وفي نفسي أركبها لأني ما رأيت جرحها، فلما أصبحنا بخير صلينا الصبح خارج الخان، ونظرت إلى ظهر الفرس فرأيته مجروحاً، فصرت أمشي والفرس يقودها أحد رفقائي إلى أن وصلنا إلى قرب الشام فركبتها ركوباً لطيفاً حتى دخلنا الشام من باب السلام بسلام وقلنا : الحمد لله الذي أذهب عنا وعثاء السفر.

الشام

ووصلنا إلى الشام بخير وعافية، وكان اليوم الرابع عشر من شهر شوال سنة تسعة وثمانين ومائة وألف[208]، فنزلنا عند جناب العارف الفاضل المرحوم اليوم الشيخ عبد الرحمن الكردي -رحمة الله عليه- في المسجد الذي على باب دار ابن حمزة الذي مر ذكره، فسلمنا عليه، وترحب بنا، فجزاه الله تعالى عني خيراً، خصوصاً كنت قرأت عليه دروساً من أول كتاب (فصوص الحكم) للشيخ الإمام الهمام الشيخ محيي الدين [ابن] العربي رضي الله عنه. وأرسل إلي مكتوبا إلى بلادنا ..

وفي سنة ١١٩٣[209] جاء إلى زيارته جناب المرحوم كتخدا أحمد لجناب الوزير المرحوم المكرم والي الشام أسعد باشا من بيت عظم، أو بقبة قهوته الكائنة خارج باب الفراديس[210] على نهر الشام المسمى برده .. عمرها الشيخ عبد الرحمن زاوية وبيتاً وخلاوي[211] وبنى فيه لنفسه قصراً مخصوصاً على شاطئ النهر، وقبره- رحمه الله تعالى – الآن اتجاه ذلك القصر على جهة الشمال، فلما كمل بناؤه كتب داخله قصيدة سلطان الأولياء شيخا الشيخ عبد القادر الجيلي رضي لله عنه وعنا به أمين . فقال رحمه الله

208- ووافق ٧ كانون الأول ١٧٧٥م.

209- ووافق أولها ١٩ كانون الثاني ١٧٧٩م

210- باب الفراديس في سوق العمارة الممتد إلى جامع بني أمية، نسب إلى محلة كانت خارج البلد تسمى الفراديس، ولا يزال قائماً، وهو قريب من نهر بردى. ينظر صلاح الدين المنجد: دمشق القديمة ص٥١.

211- جمع خلوة، وهي هنا المكان المخصص للإعتكاف.

تعالى: اعمل في آخر القصيدة بيتاً مفرداً باسمي والتاريخ على القافية، وقصيدة أيضاً في تاريخ القصر غير ذلك، [فـ]ما أمكنني أقول له لا، بل قلت: نعم إن شاء الله تعالى .

ثم ثاني يوم وأنا في خلوتي الكائنة في خانقاه السميساطية[212] ركبت، في آخر القصيدة، وجئته وأعطيته إياه، وقال لي: ما شاء الله! بارك الله فيك، فدعا لي، وآخر بيت القصيدة التي لحضرة الشيخ عبد القادر رضي الله عنه هذا:

شموس الأولين وشمسنا أفلت أبداً على فلك السماء لا تغرب

والذي قلته هذا:

ولذا أضاء مقام عبد معالمهم بضيائها أرخ قدام الغيهب

والقصيدة التي أنشدها عرضتها عليه سنة ١١٩٣ رحمة الله عليه، فقال لي أيضاً: بارك الله فيك لأجل خاطري، وإلاّ ليست مما يُكتب. فأمر بكتابتها بخط ثلث مليح على لوح وعلق اللوح في القصر، ولم تزل إلى يومي هذا، وهي ستة أبيات.. وفي عام سبعة وتسعين بعد ألف ومائة[213] أيضاً، كنت أسامر مع بعض أهل الأدب والكمال من سادات فتيان الشام، يقال له السيد عبد الحليم اللوجي، وهو في قيد الحياة

212- الخانقاه هي الرباط المسمى في القرون المتأخرة بالتكية، وجمعها خانقاهات وخوانق، والسميساطية منسوبة إلى الشيخ أبي القاسم علي بن محمد بن محمد السميساطي المتوفى سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م، وكانت تقع عند باب الجامع الأموي الشمالي، وكانت في مبدأ أمرها داراً لعبد العزيز بن مروان بن الحكم، ثم انتقلت إلى عمر بن عبد العزيز، وتداولتها الأيدي حتى أوقفها السميساطي على الفقراء الصوفية. عبد القادر النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج١ ص١٥١ وابن كنان: المواكب الإسلامية ج١ ص٣٥١.

213- ويوافق ٧ كانون الأول سنة ١٧٨٢م.

الآن – بارك المولى في حياته – فرأيته لبيباً ماهراً له حدة الذكاء المفرط ، زاده الله تعالى كمالاً وخصالاً ومعرفة ...

وقد طلب مني أيضاً الفتى الصالح النجيب الفاضل بن الفاضل العلامة الشيخ محمد الكُزبري - حفظه الله الحفيظ- الشيخ عبد الرحمن[214] - سلمه الله السلام السلام[215]- أن أؤرخ عِذاره بأبيات في سنة مائتين وألف[216]..

وكم لي من تواريخ تركتها، ومن مدائح العلماء والصلحاء وغير ذلك، ومما أرسلت به إلى البلاد البعيدة والقريبة، كمصر والحجاز وبغداد والموصل ورُها وحلب وإسلامبول والعراق وغير ذلك.

ومما أرسلت به إلى مصر إلى جناب المرحوم إمام العلماء في مصر وشيخ وقته وبقية السلف، العالم العلامة النحرير الوحيد التقي الصالح الزاهد الشيخ محمد المنير[217]، اسم فاعل - رحمة الله عليه وجعل الفردوس منزله ومأواه ونفعنا به آمين، قصيدتي الآتية على روي القاف الممدودة، وطلبت فيها بعد وصفه والدعاء أن يرسل إلينا إجازة مشايخه لي وللشيخ محمد بن عبد الرحمن الكزبري عالم الشام اليوم فسح الله تعالى في أجله ونفع المسلمين بطول حياته آمين، وكان السبب في ذلك الأخ العالم التقي الفاضل الشيخ يوسف العقاد الشامي، وهو الآن في قيد الحياة في مكة المشرفة – كان الله له عوناً ومعيناً ولنا والمسلمين أجمعين- وكان الشيخ يوسف هذا في مصر في حياة الشيخ ..

214- عبد الرحمن بن محمد الكزبري الدمشقي، عالم محدث، فقيه، ولد سنة ١١٠٠هـ/١٦٨٨م، وأخذ العلم على علماء عصره، وانتفعت به الطلبة، وتوفي سنة ١١٨٥هـ/١٧٧١م. المرادي: سلك الدرر ج٢ ص٣٢٧.

215- السلام الأولى من أسماء الله الحسنى، والثانية بمعنى التحية.

216- ويوافق أولها ٤ تشرين الثاني ١٧٨٥م.

217- هو الشيخ محمد المنير بن محمد بن أحمد السمنودي الشافعي الأحمدي ثم الخلوتي المصري، صوفي جاور في الأزهر، وصنف في القرآن والحديث والتصوف، ولد سنة ١٠٩٩هـ/١٦٨٧م، وتوفي سنة ١١٩٩هـ/١٧٨٤م. المرادي: سلك الدرر ج٤ ص١٢٢.

وبعد أيام جاءني مكتوب منه – أعني الشيخ يوسف- بإجازة شيخه الشيخ محمد المنير وللشيخ ابن الشيخ عبد الرحمن الكزبري الشامي .. وذلك عام ستة وتسعين ومائة وألف ..

ومما مدحت به جناب العالم النحرير الفاضل اللوذعي البصير ابن عمي مصطفى، من الشام إلى بلاد الأكراد عام سبعة وتسعين ومائة وألف[218] ..

ومن القصائد التي أرسلت بها إلى جناب الأخ الكريم والصديق الحميم عارف زمانه ووحيد أوانه الكامل الأديب والفاضل النجيب جوهر صدف الشام المرحوم الشيخ أحمد المعروف في الشام بالسمان بن العارف.. الشيخ عبد الرحمن السمان المعروف بابن الروّاسي الشامي رحمه الله، وقد أخبرني ببعضها ابنه المذكور. قال لي مرة : اشترى والدي رأس غنم من سوق الغنم، معروف بالشام، باثني عشر قرشاً لآجل الوليمة للفقراء، وما كان عنده ثمنها بل استدان من بعض أصحابه، فلما ذبحه في داره وشقوا بطنه وأخرجوا منه القباوة[219]، رأوها ثقيلة يابسة، فتعجبوا منها، فلما فتحوها رأوها ملآى بالقروش والمصاري[220] وفراطة[221] أشكال المعاملة الجارية السالكة في البلد بين الناس، وأخرجوا جميعها منها، فلما عدوها لقوها اثني عشر قرشاً لا زايد عليها شيء ولا ناقص منها، فقال والدي: مليح هذا من بركة نية الفقراء! فتعجبوا[222] الحاضرون من هذا الأمر، وصار كل منهم يحكي كلام شكل، هذا يقول: من كرامات الفقراء، وهذا يقول: بلعهم رأس الغنم من أصحابه التركمان، لأن الحيوان يحب المعاملة حتى راحوا إلى البائع، وأخبروه بالأمر،

218- ويوافق أولها ٧ كانون الأول ١٧٨١م.

219- فصيحها القبوة وهي المرة و المرارة.

220- تقدم شرحها.

221- فراطة في مصطلح أهل الشام قطع النقود الصغار، وهي التي يسميها المصريون الفكة، والعراقيون الخردة.

222- يريد: فتعجب.

قال: لا علم لي بذلك، بل هو كان من دراهمي سامحه الله تعالى، لأن هذا ما سمعنا به قط. ولا أظن إلاّ أنه كرامة ولا بد .

وأخبرني ابنه الصاحب المرحوم المذكور- رحمة الله تعالى عليه وعلى والده- أن رجلاً من أهل محلة مئذنة الشحم[223]، محلة مشهورة في الشام، كان مديوناً مغلوباً، يوماً من الأيام مسكه صاحب الدين في السوق بين الناس، وقال له بعد الخِناق: والله ما أتركك حتى تعطيني حقي!. الى متى أصبر عليك وأنت توعدني[224] بالجمعة واليوم وغداً؟ أما أن تعطيني الذي عندك وإلاّ تعال معي حتى أحبسك وإلا أروح أشتكي عليك، فاجتمع الناس عليهما، وقالوا لصاحب الدين: لأجل خاطرنا اليوم اصبر عليه كما صبرت عليه سابقاً، إن كان نهار غد ما أعطاك فدونك وإياه، أعمل معه ما تريد. والغريم يحلف بالله إنه يعطيه غدا لو باع ما عليه من اللباس، وكان الدين ثلاثين قرشاً معاملة الشام. والحاصل تركه، فذهب والمديون لا يملك شيئاً، فلما أمسى تلك الليلة وهو في حيرة، كيف يعمل غداً قدام الناس حلف ايامين[225]، وليس قدامه سوى الحبس، نوى إذا طلع النهار قبل الفجر يخرج من البلد ويسافر ويهرب من غير دراية أهله أيضا، فلما صار محل الصبح قام يعمل ويتوضأ، وخرج إلى جامع السنانية[226]، [وهو] جامع معروف في الشام على باب الجابية، الباب الغربي من أبواب البلد، فيصلي الصبح هناك ويروح. وهو في هذه الحال والنية، سمع دق الباب، فسقط قلبه من الخوف من صاحب الدين، وقال: الله اكبر، لا الله إلاّ الله محمد رسول الله، لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم، حسبنا الله ونعم الوكيل، يا ليتني ما نمت في بيتي يا رجال[227] لأي شيء، من أول الليل ما رحت إلى جامع

223- محلة في جنوب شرقي دمشق، داخل السور القديم، معروفة اليوم بسوق مدحت باشا.

224- عامية، ريد: تعدي

225- يريد: أيمان.

226- هو جامع سنان باشا في جادة السنانية، عند باب الجابية، كان يسمى قديماً بمسجد البصل، فقام سنان باشا المتوفى سنة ١٠٠٤هـ/١٥٩٥م بتجديده ولم يزل قائماً. ابن كنان: المواكب الإسلامية ج١ ص٣٦٠.

227- عامية: يريد يا رجل.

السنانية، كنت تنام هناك!. وظنه أنه صاحبه خاف عليه أن يهرب، فأتى إليه قبل أن يخرج من بيته. أتى وراء الباب ولسانه لا يعطيه بقوله: من دق؟ كالمريض الذي له أيام في المرض: يا رب أنا دخيلك، قاله سراً، وأصغى إلى الصوت الذي دق الباب أن كان صاحبه يقول لامرأته: قومي قولي له رجَّالي[228] ما جاء البارحة، تركنا بلا عشاء أنا وأولادي. فلما سمعت صوت القائل: أفتح، عرف أنه ما هو صاحبه : فقال الحمد لله! ثم فتح الباب فرأى والدي الشيخ عبد الرحمن السمان، [فـ]سلم عليه وصبَّح وناوله صرة، وقال له: لا تسافر ما في اذن[229]، كن عند اهلك وأولادك، الله كريم! ثم قبَّل يده وكشف عن رأسه، فدعا له، فقال: جزاك الله عني خيراً. ثم الوالد طمأن خاطره وودعه ورجع، والرجل أغلق الباب وأتى لى عند السراج، ففتح الصرة [فـ]رأى دراهم كثيرة، فعدها فلقي ثلاثين قرشا تماما، فقام يسجد ويقوم ويدعو، فلما أصبح وصلّى الصبح طلع الى السوق وأشترى الخبز واللحم والارز واللبن والحطب والسمن وغير ذلك، وعاود لى بيته فرحاً ومسروراً، وبطّل السفر، وأخبر أهله بما نوى ليلته تلك، وبالوالد والدراهم، وقال: شيء لله يا رجال الشام! الله يدخلنا في أنظاركم في الدنيا والآخرة. ثم عد خمسة عشر قرشاً وحده[230] ووضعه في جيبه، وخرج إلى السوق وقلبه غير خائف، وإذا بصاحبه يصرخ، فقبل أن يصل صاحبه إليه قال له: تعال خذ لك خَرجية[231]، وسلّم عليه وصبَّح وعَدَّ له ما كان عده هو عند نفسه، فقال: إن شاء الله تعالى الباقي أكمله لكم بعد كم يوم، ورضي عنه بما أخذ، وذهب، ومثل هذه الأحوال ما لا يضبط خصوصاً.

228- يريد: رجلي

229- عامية، يريد: لا يوجد إذن.

230- يريد أنه عزل المبلغ المعدود عن سائر نقوده.

231- الخرجية من الخرج، وهو كيس النقود وغيرها، وتعني اصطلاحاً المبلغ المخصص ليوم أو لأيام قليلة.

واجتمع بمثل جناب الأمام العلامة العارف المحقق الشيخ عبد الغني الشامي النابلسي رضي الله عنه، وبجناب العالم التقي الزاهد ملا الياس الكردي[232] - رحمة الله عليه- مات قبل الشيخ عبد الغني، أعني ملا الياس، وأرخ موته الشيخ عبد الغني بهذه الأبيات، وإلى الآن على شاهد قبره في تربة باب الصغير التي هي قِبلية البلد وأعظم تربها، وهي هذه، قال قدس سره:

جـــاء إلى بلــــدتنا كامــــل   فهـــو الإمـــام المفـــرد الواحـــد
شـــيخ العلـــوم إليـــاس بـــدر الهـــدى   ومـــن هـــو الموجـــود والواجـــد
مـــن بعـــده مـــات التقـــى أرخـــوا   ومـــات إليـــاس التقـــى الزاهـــد
١١٣٨[233]

واجتمع بالمولى القطب الصالح الشيخ مصطفى المشهور بالمطيعي...

وله اجتماع بالولي المقرب الشيخ علي النبكي، وكان من أكابر الأولياء، حتى الشيخ عبد الغني افتخر بحضوره إلى جنازة والدته، وهي في النبك، من غير أن يخبره أحد بموتها.

ومن كراماته أن الشيخ عبد الرحمن له خلوة في خانقاه السميساطية ينام فيها لأجل الحمَّام، وكان بي ده حمام السلسلة الكبير[234]، وفي تلك المدة مرة قام خرج من خانقاه السميساطية ومشى نحو الحمام ليفتحه وقت المراسلة، والمراسلة معروفة عند أهل دمشق، [و]هي المؤذنون لجامع سبعون رجلاً، كل يوم وليلة على عشرة أنفس منهم، إذا ذهب من

232- هو إلياس بن إبراهيم بن داود بن خير الكردي، نزيل دمشق، الشافعي الصوفي، ولد سنة ١٠٤٧هـ/١٦٣٧م، ورحل إلى بغداد حيث أخذ على علمائها أيضاً، درس أولاً في المدرسة البادرائية، ثم في جامع العداس، وعرف بالزهد والورع، وألف شروحاً وحواش عديدة، وحج وجاور، وتوفي بدمشق على ما سيذكر المؤلف سنة ١١٣٨هـ/١٧٢٤م. المرادي: سلك الدرر ج١ ص٢٧٢.

233- ويوافق أولها ٩ أيلول سنة ١٧٣٥م.

234- من حمامات دمشق القديمة، جدد في زمن ولاية حسن باشا سنة ١١١٢هـ/١٧٠٠م. ابن كنان: المواكب الإسلامية ج١ ص١١٢.

الليل حصة معلومة عندهم يقوم واحد من المؤذنين ليصعد على المنارة يؤذن، ويقال لهذا الأذان في الشام أول، ومن هذا الأول ما هو هذا الاذان الذي يؤذنه المؤذن على منارة جامع الشام صيفا وشتاءاً. ويبقى لطلوع الفجر أربع ساعات أو خمس دائماً. ثم هذا المؤذن لم يزل يذكر الله ويثني عليه ويصلي على ا لرسول عليه الصلاة والسلام مقداراً معلوماً عندهم، ثم يؤذن، ثم يأتي رجل آخر، وهكذا إلى أن يبقى إلى الفجر ساعة، فيجتمعون هؤلاء المؤذنون العشرة ويؤذنون جملة، وهذا الأذان الثاني جماعة يقال له المراسلة، وللأول يقال أول، وللرجل الثاني بعد الأذان الأول يقال له الثاني، والثالث بعد الثاني ثالث، والرابع بعد الثالث رابع، وهكذا إلى أن يؤذنون جملة حين تبقى ساعة للفجر، ثم إذا طلع الفجر أيضاً يؤذن رجل في أرض المسجد على باب مكان المؤذنين، يقال له كلاسة[235].

ولنرجع إلى حال الشيخ عبد الرحمن في هذا الوقت من الليل قبل أن يصل الى باب الحمام، وبين الحمام والخانقاه المذكور خمسون خطوة تقريباً، صادف رجل العسس مارِّين، فلما رأوه قالوا له: من أنت يا شيخ؟ قال: أنا عبد الرحمن صاحب هذا الحمام أروح أفتحه وحجرتي في هذا الخانقاه، فما تركوه بل قالوا له: نحن مأمورين من طرف والي البلد إذا رأينا أحداً في هذا الوقت وفي كل الليل بلا سراج أن نمسكه، تعال معنا إلى السراية[236]، فإذا أذن الصبح نُطلقك. فقال لهم: إخوان! الناس كلهم يعرفوني والحمد ل،له فما أنا سارق ولا خرائيي[237]، وثالثا موضعي قريب ما يحتاج إلى السراج، وإذا جئت إلى السراية معكم لابد أن يدري جناب الباشا بهذا فأخاف أن يؤذيكم وتصير لكم الإهانة، خلوني أروح إلى شغلي. فما أمكن أن يخلوه سبيله، وقال: حسبنا الله! لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي

235- الكلاسة مدرسة كانت ملاصقة للجامع الأموي، أمر بإنشائها نور الدين محمود، وجددها السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م. النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٤٧.

236 تأنيث عامي لكلمة (السراي) وهي دار الحكم مطلقاً، والمقصود هنا- فيما يظهر- المخفر أو ما شابهه.

237- يرالخرائيي الذي يتخذ من الخرائب مكانا لارتكاب المعاصي، ومن الكلمة أخذ الفرس اسم (خراباتي) بمعنى السفيه والسكير.

العظيم . فما مشي سبع عشر خطوات[238]، وإلاّ بالصراخ بصوت عال بكيت وكيت، بألفاظ منكرة: اتركوا عبد الرحمن! روحوا في سبيلكم يا كذا وكذا. وقال: وأنا عرفت صوت الشيخ علي، والتفتُّ وإذا بالشيخ علي عندي، فأمسك بيدي ومشى معي راجعاً الى الخانقاه، وقال لي: هؤلاء التاركين الفاعلين ما كانوا يخلُّوك تروح. قلت: نعم! ونظرتُ إليهم عند بلوغي مع الشيخ إلى باب الخانقاه، فرأيتهم التجموا وخرسوا وتسمروا في الأرض، والشيخ يقول لهم كلاماً موبخاً، ولا يردون ولا يتحركون، فعرفت أن الشيخ بالحال سمرهم، بلت يده وقلت له: يا سيدي أطلقهم يروحوا، قال – قدس سره- يا كذا وكذا روحوا حالاً بلا كلام، وأنا والشيخ على باب الخانقاه، فقلت له: يا سيدي تفضل حتى تقعد واسترح عندي في الخلوة، ظني أنه جاء من نبك. قال لي: ادخل أنت ما عليك مني، فحسبت يقول أدخل الخانقاه قبلي، ففتحت باب الباب، وألتفتُّ إلى الشيخ فما رأيته، فرجعت أركض نحو الحمَّام فما لقيت أحداً، فعلمت أنه رجع الى نبك كما جاء خطوة لأجلي. ثم أنا فتحت باب الحمام وطلع النهار وقلبي مع جناب الشيخ الى أن مضي يومان بعد ذلك، وإذا الشيخ قال لي قبل أن أتكلم: وهذا الفاعلين التاركين- يعني العَسَس- مَسَكوك ما خلوك تروح تفتح الحمام، قلت له: نعم، وقبلت يده. وقلت: أنا محسوب جنابكم لا أحد يقدر يمسكني، أو يعمل معي شيئا، فتحققت أنه كان ذلك الوقت في ضَيْعة النَّبك، وحضر لأجلي بالحال خطوة ورجع كذلك.

وأحوال هذا الشيخ وكراماته كثيرة - رضي الله عنه- والمراد بالذكر هنا أن الشيخ عبد الرحمن السمان والد الشيخ أحمد صاحبي رحمه الله تعالى، فكيف لا يكون صالحاً صاحب مثل هؤلاء الرجال.

وممن اجتمع به الولي العارف المحقق صاحب الخوارق الظاهرة الكثيرة، والأحوال العجيبة الشهيرة، والتصانيف الخارجة عن مدارك عقول العلماء، ومنها تسع أو عشر مجلدات كانوا عند الشيخ عبد الرحمن، وبعد وفاته عند ابنه الشيخ أحمد، وبعد وفاة الشيخ أحمد عندي اليوم بوصيته لي، ولكن ما أحد يقرأ منهم كلمة ولا خطهم يشبه الخط المعروف عندنا الا

238- يريد: خطوة.

بعض السطور، أو الكلمة والكلمتين في بعضهم لأنها في خطنا العربي فقط، حتى قيل له خذوهم واعرضوهم على جناب الإمام العلامة شيخ الزمان القطب المرشد المحقق الشيخ عبد الغني النابلسي- رضي الله عنه- فما عَرَف منها شيئاً، ولا حل مشكلها إلا هو الشيخ عبد الرحمن بالشرح الكردي مدرك[239] باب تومه[240] من ابواب مدينة دمشق من جهة المشرق وما يلي بالشمال، ثم - رضي الله عنه- سكن المدرسة البدرائية التي مر ذكرها، وحاصل الأمر فإن أصحاب هذا الشيخ عبد الرحمن كثيرون، وكل واحد ينبغي أن تكون] ترجمته مستقلة.

وأيضا ممن اجتمع به جناب العارف المحقق الإمام العالم العلامة الشيخ عبد الغني النابلسي الشامي - رضي الله عنه- صاحب التأليف العديدة فقهاً وتوحيداً وبكل فن حتى تعبير الرؤيا[241]، وله ديوان في الحقيقة ما صنف مثله في الإسلام - نفعنا الله تعالى به وبعلومه- وكان في الشام في حياته العالم الزاهد العلامة المرحوم الملا الياس الكردي الذي ورد ذكره.

وممن اجتمع به هذا الملا الياس الكردي -رحمه الله عليه- شيخ العلماء الأعلام في عصره في الشام، وكراماته وزهده وورعه لو ذكرتُ بعض ذلك لطال علينا ما نحن بصدده. عاش وحيداً ما تزوج قط.. وكان له خلوة في جامع العداس ظاهر دمشق في ناحية الغرب من البلد، دائما في الخلوة على الجِلْد[242]، وكان الباشوات يأتون إلى زيارته ويضيِّفهم. زبيباً مع الخبز اليابس، ويأكلون لأجل بركته ويقبلون يده، واذا أرادوا الانصراف من عنده يضع واحدهم مقداراً من الدنانير تحت جِلده لعلمه أنه لا يقبل منه شيئاً

239- كذا في الأصل.

240- كذا كتبها المؤلف، والمشهور توما بالمد، من أبواب مدينة دمشق القديمة، يقع في قسمها الشمالي، ينسب إلى من اسمه توما من عظماء الروم. ياقوت: معجم البلدان ج١ ص٣٠٧، والمنجد: دمشق القديمة ص٤١

241- يقصد كتابه (تعطير الأنام بتعبير المنام) وقد طبع في مجلدين.

242- قال المرادي في سلك الدرر ج١ ص٢٧٣ أنه" تحول إلى جامع العداس في محلة القنوات وقطن به داخل حجرة إلى أن مات".

وممن اجتمع به الشيخ العالم المحقق العارف المرشد الكامل الحقيقي الحسيب النسيب القطب البكري السيد مصطفى الصديقي -رضي الله عنه- وأنا أجتمعت بهذا الإمام الهمام مرتين، الاولى في سنة ١١٥٩ والثانية في مصر القاهرة سنة١١٩١، والأولى في بيت المقدس، وعرض علي المبايعة بعد حكاية طويلة حكاها بفمه المبارك في داره في مصر، ولم يكن عنده في ذلك الوقت غيري والبواب بالباب، وسبب ذلك إني في رواق الأكراد بالجامع الأزهر، الكائن بمصر، الجامع المشهور بالآفاق قديماً وحديثاً حباه الله بذكره إلى مديد الزمان، ليلة رأيت حضرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في الرؤيا، ثم رأيت الذي أراه، وأعتقده أنه النبي صلى الله عليه وسلم في حال النوم، ونظرت إليه ثانياً، فرأيت صورة السيد مصطفى البكري الصديقي رضي الله تعالى عنه ونفعنا به آمين، والرؤيا طويلة تركتها وذكرت منها هذا القدر..

ويكفي وصف الشيخ عبد الرحمن السمان المعروف بابن الرواس الشامي - رحمه الله- شهادة الشيخ أحمد الكَسَبي الحلبي - رحمة الله- في مكتوبه المذكور: فأنت طيب الروح زكي النفس مبارك القلب. وذكرته- رحمه الله- لأجل ابنه صاحبي الشيخ أحمد المذكور الذي صار بسبب هذه القصيدة الآتية فإني صاحبته فوق ثلاثين سنة إلى تاريخ سنة هذه الرحلة، وبعد وفاته بسنتين وأكثر، وهي سنة ثلاث ومائتين وألف، سكن بظاهر البلد في محله المعروف بين أهل الشام، بعمارة شمالي البلد المسماة برج الدحداح كما مر ذكرها، فمات في بيته، وحضر موته وغسله وتكفينه وتجهيزه وتدفينه صلحاء الوقت وأخيار الشام، وصُلِّي عليه في جامع التوبة، ودفن بتربة الدحداح، ونَزَّلوه على أبيه- رحمهما الله تعالى — في قبر والده، بجنب قبر الشيخ أحمد الكَسَبي الحلبي —رضي الله عنهم — وقبرهما ظاهر يزار ويتبرك به إلى الآ ن. توفي في أول جمعة من شهر رجب سنة ألف ومائتين وواحد[243].

وممن اجتمعت بهم في دمشق الشام من العلماء خلق كثيرون، ولكن أذكر هنا من يحضرني منهم — رحمة الله تعالى رحمة واسعة ورحمنا ببركاتهم- ومن أولهم العالم العلامة شافعي زمانه لطول باعه في فن الفقه والحديث والتفسير خاصة المرحوم الشيخ علي الكزبري

243- ١٨ نيسان ١٧٨٦م.

الشافعي الشامي، كان من أكابر المدرسين في دمشق ، وأزهد العلماء وأتقاهم، وكان يدرس في جامع بني أمية في المحراب الرابع غربي الحرم- رحمة الله عليه- ثم لما توفي إلى رحمة الله تعالى ألبس وزير الشام والي دمشق أمير الحاج المرحوم أسعد باشا ابن العظم عمته على جناب العالم الصالح التقي قريبه الحاج المرحوم الشيخ عبد الرحمن الكزبري العطار الشامي، ثم لما توفي الشيخ عبد الرحمن –رحمة الله عليه – لبس عمته ابن الفاضل العالم العامل التقي الحبر النحرير شمس سماء الشام في عصري، أعني التاريخ المذكور، جناب شيخنا الشيخ محمد الخياط الكزبري الخطيب الشامي – فسح الله في أجله ومتع المسلمين بطول حياته – وهو الآن في قيد الحياة سلمه السلام من عارض الممات، آمين .

ومنهم العالم النحرير والفاضل المؤلف الشهير أحمد المنيني رحمة الله عليه[244] .

ومنهم العالم العلامة الشيخ عبد الله البصروي رحمة الله عليه[245]

ومنهم العالم الفاضل الشيخ أسعد المُجَلِّد رحمة الله عليه

ومنهم العالم الفاضل السيد علاء الدين رحمة الله عليه[246]

ومنهم العالم الفاضل الشيخ محمد النجار الصَّيداوي

244- هو أحمد بن علي بن عمر الطرابلسي الأصل المنيني المولد الدمشقي المنشأ، ولد سنة ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م، وقدم دمشق حيث أخذ العلم على كبار علمائها، وله مؤلفات جمة، وتوفي سنة ١١٧٢هـ/١٧٥٨م. ترجم له المرادي في سلك الدرر ج١ ص١٤٥.

245- هو عبد الله بن زين الدين بن احمد الشهير بالبصروي الدمشقي، مؤرخ فاضل، ولد في القسطنطينية سنة ١٠٩٧هـ/١٦٨٥م وقرأ على جماعة في دمشق، وتخرج على يديه كثيرون، ترجم له المرادي ج٣ ص٨٧ وقال" ألف تاريخاً لأبناء العصر وأخفته ورثته بعد وفاته ولم يبن له أثر". توفي سنة ١١٨٦هـ/١٧٧٢م.

246- هو السيد علاء الدين بن السيد عبد اللطيف بن علاء الدين الحسيني العذراوي ثم الدمشقي، قرأ على جماعة في مصر، ثم في دمشق، ودرس بالجامع الأموي وفي المدرسة البادرائية، وولي نقابة الأشراف بحماة. توفي سنة ١١٦٢هـ/١٧٤٨م. سلك الدرر ج٣ ص٢٦٠.

ومنهم الشيخ الفاضل الشيخ علي السليمي الصالحي رحمة الله عليه[247]، مدحته بقصيدة بعد ختم درسه للبيضاوي في الجامع الأموي في المحراب الرابع الغربي، وطلبت منه الإجازة وأجازني ، ونقلت بيته.

ومنهم الشيخ عبد اللطيف العمري رحمة الله عليه[248] .

ومنهم الشيخ الصناديقي رحمة الله عليه[249]

ومنهم الشيخ أحمد الحنبلي الخطيب الحائك رحمة الله عليه، قرأت عليه في الفقه الحنبلي كتاباً مختصراً.

ومنهم الشيخ العلامة مفتي الشام المرحوم حامد أفندي رحمة الله عليه[250].

ومنهم السيد عبد الرحمن الكيلاني رحمة الله عليه[251]

ومنهم الشيخ بكري القوّاف رحمة الله عليه

ومنهم الشيخ محمود الكردي رحمة الله عليه

247- هو علي بن محمد بن علي بن سليم الدمشقي الصالحي. ولد سنة ١١١٣هـ/١٧٠١م وأخذ العلم على كبار علماء عصره، ودرس بالجامع الأموي وغيره، وله مؤلفات في التفسير واللغة، توفي سنة ١٢٠٠هـ/١٧٨٥م. سلك الدرر ج٣ ص٢١٩.

248- هو عبد اللطيف بن محمد بن محمد بن أحمد العمري الدمشقي الخلوتي، تولى مشيخة الطريقة الخلوتية، وكان صالحاً توفي سنة ١١٦٤هـ/ ١٧٥٠م. سلك الدرر ج٣ ص١٣٣.

249- هو عبد الرحمن بن أحمد الصناديقي الدمشقي، قرأ على علماء دمشق، وجاور بمصر مرتين، وأخذ عن علمائها، وكان يقرئ بالجامع الأموي، وله تصانيف. توفي سنة ١١٦٤هـ/١٧٥١م. سلك الدرر ج٢ ص٢٨١..

250- هو حامد بن علي بن إبراهيم العمادي مفتي الحنفية بدمشق، ولد بدمشق سنة ١١٠٣هـ/١٦٩١م، وتولى الإفتاء فيها سنة ١١٣٧هـ/١٧٢٤م، وتوفي سنة ١١٧١هـ/١٧٥٧م. سلك الدرر ج٢ ص١١.

251- هو السيد عبد الرحمن بن عبد القادر بن إبراهيم الكيلاني الحموي، ولد بحماة سنة ١١٣٠هـ/١٧١٧م وقدم دمشق فقرأ على علمائها ، وتولى نقابة دمشق مدة، وكانت وفاته سنة ١١٧٢هـ/١٧٥٨م. سلك الدرر ج٣ ص٢٩٤.

ومنهم العالم الفاضل ملا علي الداغستاني رحمة الله عليه[252]، وغيرهم رحمة الله عليهم أجمعين .

ومن المشايخ في الشام الشيخ عبد الرحمن بن ملا حسن الكردي غير الشيخ عبد الرحمن المذكور أنفاً

والشيخ ملا علي الهندي رحمة الله عليه

والشيخ عباس الكردي رحمة الله عليه[253]

والشيخ عبد الرحمن أيضاً الكردي تلميذ العالم العلامة الشيخ الياس الكردي رحمه الله عليهما

والشيخ عبد القادر الشامي رحمة الله عليه

والشيخ أحمد النشار الرفاعي رحمة الله عليه

وتركت من العلماء كثيراً، وأيضا من المشايخ، وما ذكرت الذين ذكرتهم إلاّ تبركاً بذكرهم ومن المجاذيب خلق كثيرون، منهم - رحمة الله عليه- المشهور الشيخ خليل البياض، ومن كلامه في حق واحد يقال له الحاج محمد الدوارة رحمة الله عليه، كان يخدم الشيخ مصري كلما يراه .. وكان صاحبي رجلا ذا لحية بيضاء، ولكن فقير الحال، إلاّ أنه رجل صالح تقي رضي مرضي، مات بعد التسعين ومائة وألف - رحمة الله تعالى عليه وعلى والديه-.. ولما توفي دفنوه في تربة الشيخ أرسلان الدمشقي رضي الله عنه. وعلى قبره تابوت من خشب إلى يومي هذا ويزار قبره ويتبرك به، وقولي إلى يومي هذا غرة السنة الرابعة بعد مائتين وألف[254].

252- هو علي بن صادق بن محمد الداغستاني الأصل والمولد، قرأ العلم على علماء بلاده، ثم رحل إلى الحجاز ثم إلى دمشق وتوطنها سنة ١١٥٠هـ ودرس الحديث في الجامع الأموي. وله تآليف، توفي سنة ١١٩٩هـ/١٧٨٤م. سلك الدرر ج٣ ص٢١٥.

253- توفي سنة ١١٦٣هـ/١٧٤٩م. الحلاق: حوادث دمشق اليومية ص١٣٥.

254- وتوافق ١٨ نيسان ١٧٨٧م

وأعرضت عن ذكر باقي المجاذيب شاماً ومصراً وحجازاً وبغداداً وكُرداً وحلباء وقسطنطينية وغيرها من البلاد مصراً كانت أو قرية، وأيضاً أعرضت عن ذكر العلماء والصلحاء والمشايخ علما وحالاً في كل البلاد ما لست أقدر أحصيهم –رضي الله تعالى عنهم وعن مشايخهم وعن والديهم جميعا ونفعنا بهم في الدارين آمين.

انتهى تحريره بعونه تعالى خامس عشر الشهر المبارك صفر الخير سنة أربع ومائتين وألف[255] بخانقاه السميساطية لصق جامع بني أمية في دمشق الشام، وذلك على يد محرره الناظم له بنفسه له ولمن شاء الله في عباده في حياته وبعد مماته، الفقير طه بن يحيى بن الأمير سليمان بن الأمير محمد بن علي بيك بن الأمير محمد بن شيخه بن شمس الدين بن أميز بن عثمان خان بن سبحان ويردي خان، معناه بالعربية: عطية الله، بن أحمد خان بن عبد المؤمن خان الماموني الكردي اليمني الشافعي مذهبا وقادري طريقة والإبراهيمي ملة والمحمدي أمة والباليساني بلداً والخوشناوي عشيرة والشامي مهاجراً، والحمد لله أولاً وآخرا ...

والحمد لله رب العالمين، تم الدعاء بعون الله وحسن توفيقه لثمانية عشر خلت من الشهر ذي القعدة الحرام الذي هو من شهور سنة ١٢٠٥[256] على يد أفقر العباد إلى الله أحمد بن الشيخ إسماعيل بن الشيخ علي العجلوني الشافعي مذهباً والأشعري اعتقادا والقادري مشربا والحنيفي ديناً والمحمدي أمة[257]، غفر الله ولوالديه ولمن نظر في هذا الكتاب ودعا له بالمغفرة ولكل المسلمين أجمعين، والسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

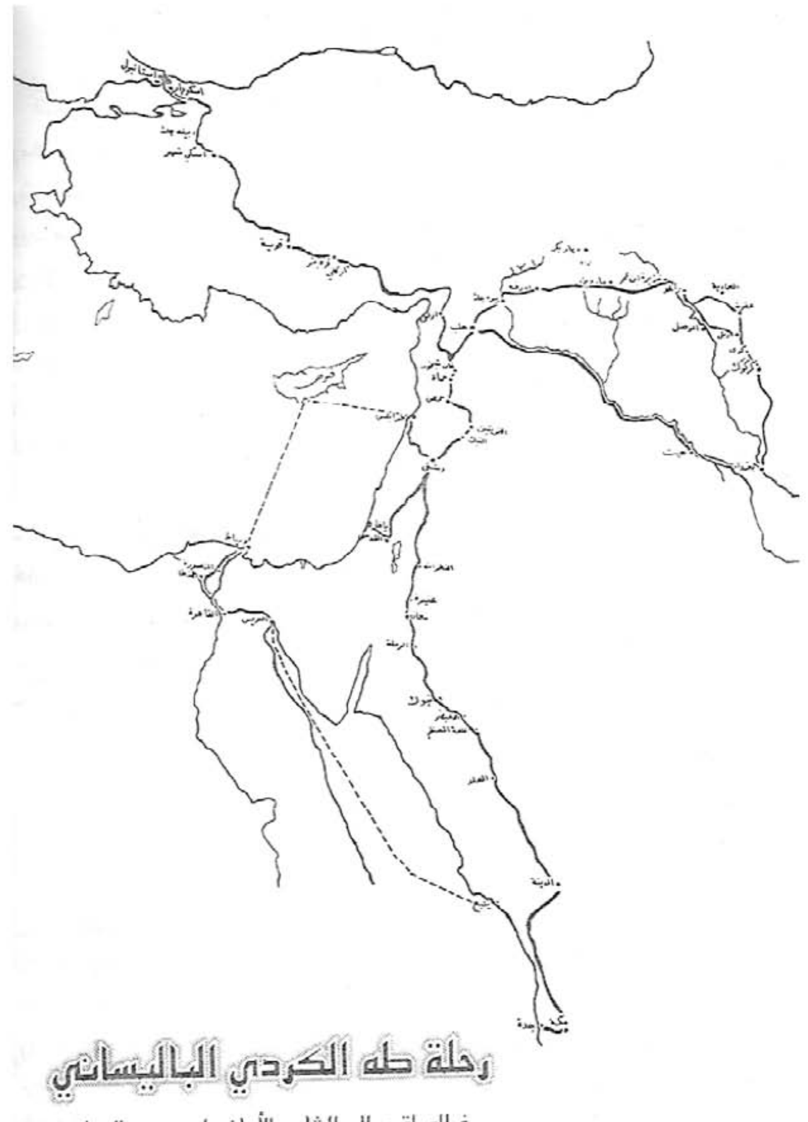
255- وتوافق تشرين الثاني سنة ١٧٨٩م.

256- ٢٠ أيلول ١٧٨٩

257- إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي (نسبة إلى أبي عبيدة الجراح) عالم بالتفسير والحديث. ترجم له المرادي (سلك الدرر ج١ ص٢٥٩) وأثنى عليه بقوله" الإمام العالم الهمام الحجة الرحلة العمدة الورع العلامة" ولد بعجلون سنة ١٠٨٧هـ/١٦٧٦م وأخذ العلم على كبار علماء عصره، وتولى التدريس في الجامع الأموي، وله مؤلفات جمة وشعر، توفي سنة ١١٦٢هـ/١٧٤٩م.

أولاً: فهرس الأعلام

ثانياً: فهرس الأمكنة والبقاع



رحلة طه الكردي الباليساني

في العراق وبلاد الشام والأناضول ومصر والحجاز